عکس سیر

عكس سير

محمد إبراهيم محروس

تصميم الغلاف: أحمد الصبّاغ

رقم الإيداع: 2017/7037

I.S.B.N:978- 977- 85342- 5-6

الطبعة الأولى 2017م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

محمد إبراهيم محروس

عكس سير

رواية

زين للنشر والتوزيع

(1)

فقدت القدرة على التميز ...أشياء كثيرة تحدث حولي ولا أستطيع أن أربط بينها، عندما خرجت هند اليوم من الحمام قالت وهي تمشط شعرها: أنني على غير عادتي . هل لفت نظرها شيء؟ هل تشك في شيء؟ لا أعتقد، فطبيعة هند أقرب للطبيعة الملائكية، تلك الشخصية التي لا تراها في النادر إلاّ عبر شخصيات روائية حالمة. ماذا قالت عندما خلعت (برنس) الحمام، وظهر جسدها يضوي عاريًا أمامي، لا تبخل عليّ هند أن أرى كلّ ما هو جميل فيها، لدرجة انعكست على خيالي كثيرًا فصرت مدة أحبس نفسي في ظل ذكرياتي معها، لا أعرف متى تحديدًا بدأ ذلك الشيء ينمو بداخلي؟ إحساس بالشك في هند، عندما أخبرت عصام منذ يومين، اتهمني بالجنون، كيف أشك في هند؟ واجهني بأخطائي الكثيرة عبر سنوات حياتي التي نادرًا ما أتذكرها، ولكن الغريب أن عصام يتذكر تفاصيل أخطائي أكثر مني! لم أقل لعصام: أنَّ الوهم الذي بدأ يكبر بداخلي ويفترسني، وذلك الكابوس المقيم داخل أحلامي أراه دائمًا هو عصام. ببذلته الكحلية التي يحرص على ارتدائها صيف شتاء،

وهو يعتلي هند، حتى في أخطائه في أحلامي يخطئ وهو بكامل شياكته، وكأنه يراهنني على أنني لا أستطيع الخلاص من تفكيري به، برغم كل السنين التي جمعتنا سويًا، وبرغم كل أحلام الطفولة والمراهقة، دومًا هناك جزءٌ يرفض عصام ، يرفضه بشدة ودون مبرر .

اللحظة التي ينتهي عندها الحلم، هي اللحظة التي أدركت وقتها أن كل شيء إلى زوال حتى الأحلام، نقطة الرجوع إلى نفسي تبدأ دوما بأحلامي، وتنتهي بأحلامي أيضًا، الأحلام هي الشيء الوحيد الذي أوهم نفسي أنني أملكه، هند، بقامتها المديدة وعينيها الواسعتين المحدقتين دوما إلى الحلم، ربما ما جذبني في هند، هما_تلكما العينان الواسعتان_ أتذكر أول يوم رأيت فيه هند، كنت أظنه حلمًا... كانت تدخل من باب النادي تتطلع إلى مائدةٍ فارغة، وكأنها ملكة تستعرض رعاياها وتشملهم بحبها، وجدت عينيّ تصطدمان بعينيها، أكاد أشك وقتها أن لعينيّ ذاكرة خاصة بهما خارج العقل، وأن نظرة هند لي اخترقت ذلك الحاجز الذي أفرضه على نفسي دائمًا، وعلى تطلعاتي. كانت تبدو فارسةً بهذا الطول، وللحظةٍ ظننت أنّ الزمن توقف، لم أنتبه وقتها إلا على يد عصام وهو يخبط على يدي، لاحظ نظرة الشرود الحالمة في عينيّ !!.

توقفت الأحلام فجأة لتتجسم كلها في شخص هند، لم أكن أصدق أبدًا عبارة :الحب من أول نظرة. ولكن ما حدث بالفعل

أن انجذبت بكل كياني في اتجاه هند، لم أنتبه لنظرات عصام العجيبة وهو يرمقني، كيف تقف هذه الملكة هكذا ولا يتنازل أحد لها عن مقعده ؟! كيف تظل عينا الملكة تدور في محجريهما تبحث عن مكان شاغر ؟! أيُّ لعنةٍ أصابت المصريين ليمنعوا أنفسهم من الوقوف احتراما لتلك الملكة المتوجة؟ أيّة لحظات أمل راحت تراودني أن تجلس بجواري الآن؟ أن آخذها في حضني، أن أطبع على خديّها قبلةً محمومةً، أطلقتُ زفرةً حارة فزاد انتباه عصام ...

عصام ألم أعرفكم به؟ لا وقت لأعرفكم بعصام الآن، لا بدّ أن أمشط شعري، وأترك هند تضع لمساتها الأخيرة على ملابسي وهي تعقد لي رباط العنق، تبتسم، فتتسع ابتسامتها، تقول لي جملتها المعتادة: تحب إيه على الغداء؟

أتمتم: أي شيء.

_كم لديك اليوم؟ قالتها هند ببساطة، هززت رأسي: أنني تقريبًا لا أعرف، فأنهم يأتون ويذهبون حينما يملوُن اللعبة معي. نسيتُ أن أخبركم بطبيعة عملي، ولكن لا يهم، ربما سأخبركم فيما بعد، وربما سترون بأنفسكم فتندمون على السؤال، لا أعرف كم سلمةً نزلت؟ كيف لم أفكر من قبل في أن أعدَّ سلالم العمارة إلى شقتي؟! منذ ثلاث سنوات انتقلت أنا وهند إلى هذه العمارة في التجمع الجديد، لم تشعر هند بالراحة أول أيامنا، كانت تريد أن تعيش في منطقة بها العديدُ من السكان،

ترغب بالألفة والونس، ولكن هذا ضد طبيعتي ، وضد أفكاري. المبدع يحتاج دومًا لمكان هادئ، ليبدع في أفكاره ومشاريعه. كلا بالطبع لست روائيًا أو كاتبًا يبحث عن الهدوء، دعك من تخميناتك، يكفي أن تعلم أنّي في طريقي لعملي الآن، العيادة الجديدة أيضًا، كله من جديد ، عيادة وهند وشقة التجمع كلها أشياء حديثة على حياتي لا تتجاوز ثلاث سنوات، قبلها كنت في عيادة خاصة مع أصدقاء ... عيادة إذاً أنا دكتور !!

لا يصعب التكهن ، وأظنك تكهنت بهذا منذ البداية، إنّي طبيب نفسي، لا تفزع، ليس الطبُّ النفسي -كما يوهمك البعض- نوعًا مختلفًا، ولكنه نوع فريد من الطبِّ، نوع شديد الصعوبة، لا ، لن أدعوك بالطبع للتمدد على طاولةٍ وتحكي لي تفاصيل التفاصيل في حياتك لأستخلص العقدة، وأعطيك حلاً سحريًا يجعلك سعيدًا، ليت الأمر بهذه السهولة، لو كان بهذه السهولة لكان هينًا علينا ، الأمر أنك تتعامل مع العقل البشري وغموضه وأسراره، وأفظع ما في العقل البشري أنه دومًا يرفضك، أنت كطبيب نفسي، والأغرب ليس الرفض، ولكن في قدرة عقل المريض على إدهاشك.

الإشارة حمراء، لماذا هذا العرق الذي يغمر وجهي برغم تكييف السيارة الفارهة؟ السيارة أيضا عمرها ثلاث سنوات، ثلاث سنوات هي عمري الحقيقي في الحياة، لو حسبت تغيير حياتي في فترة ما، مددت يدي لألتقط المناديل، أين مفتاح الشقة ؟ دوما أتركه منفردًا ، مفاتيحي كلها أتركها منفردة، كلُّ

مفتاحٍ لوحده، وكأنَّ الجمع بينهم حرام، وكأنني أخاف أن يسقط مفتاح من يدي؛ فيجر باقي المفاتيح خلفه، هذا مفتاح العيادة وذاك مفتاح الشقة القديمة، لماذا لم أتخلص منه إلى اليوم برغم تخلصي من الشقة نفسها؟ ليس تخلصًا كاملاً، لقد أعطيتها لعصام؛ ليعيش فيها بعد عودته من ألمانيا، عصام، عصام أيضا عاد منذ ثلاث سنوات، حالم هذا الفتى!

كان يظنُّ أنّه بالعلم سيستطيع أن يغزو العالم، ولكنه ذهب وعاد " وكأنك يا أبو زيد ما غزيت "... تصطدم يدي بالمسدس في تابلوه السيارة، اللعنة !

ما الذي أتى بهذا المسدس إلى هنا، أي وهم يحدث؟ الإشارة تفتح وترتفع سرينات السيارات من خلفي، أنتبه وأنا أدفع قدمي لتدفع دواسة البنزين لتتحرك السيارة بعنف غير مبرر، من أيِّ شيء أهرب ؟! هل أهرب من عصام وهند أم أهرب من نفسي؟ أيّة خيانةٍ تحدث في أحلامي لأضع لها طقوسًا غريبةً في حياتي ؟!

لأترك الوهم جانبًا، وأترك الحياة تمضي، حتى لا أجن، طبيب نفسي يجن!!

أظنُّها دعابة ظريفة يتمنى أن يراها الكثيرون، حلمك لا تنتظر مني أيّة أجوبة الآن، الوضع كله غريب وغير منطقي، أركن السيارة في جراج العمارة حيث عيادتي، أقرر أن أعدَّ سلالم

العمارة إلى باب العيادة، أجد نفسي فجأةً أمام باب العيادة، كم سلمةً؟ اثنتان وثلاثون أم خمسٌ وثلاثون ؟ أيُّ لعبةٍ هذه ؟!

إنّي لا أستطيع أن أتذكر عدد السلالم جيدًا برغم عدّي لها! هل أعود الآن وأعُدّها مرةً أخرى؟ ما هذه الخواطر المجنونة؟ ليكن العدد أيّا كان، المهم أن الأمر لا يتعدى مجرد نزوة ، وإلا تحول لكارثة وأجد نفسي أعدُّ السلالمَ يوميًا.

تستقبلني ألفت بضحكةٍ واسعة، ألفت هي القائمة على كل مجريات العيادة تقريبًا، فتاةٌ متوسطةُ الجمال، برغم أنَّ عصام يراها باهرة الحسن...وأحيانًا عندما يأتي أضبطه متلبسًا بمعاكستها وهي تضحك، وأحيانًا أراها عابسةً في وجهه، هل هناك علاقة بين عصام وألفت؟ لا أظن، لكان أخبرني لو أن الأمر كذلك، ولماذا أفترض في عصام الصدق؟! ربما يكون هناك علاقة بالطبع، فجأةً أرى ألفت أمامي عاريةً من ملابسها في غرفة عيادتي وعصام يعتليها وهي تصرخ في شبق مجنون !!!

أهزّ رأسي بعنف وأنا أطرد هذا الخاطر أيضا، لماذا يرتبط وجود عصام وخيالي دائمًا في الجنس، وهو يمارسه مع فتيات مختلفة. ربما ... لا بالتأكيد ليس الأمر كذلك... لا أظنُّ...لا داعي لأخبرك بما يدور بذهني الآن فإنّه مفزعٌ وغريب. كيف فجأةً أجدني أسحب ألفت إلى غرفة الكشف، وكيف أخلع عنها ملابسها، وكيف أدفعها إلى الفوتيه، وأعتليها وهي تستمتع في تأوه ؟!

انتبهت على صوت ألفت وهي تقول :

-فيه حاجة يا دكتور؟! ...

-لا مفيش ؟

-حضرتك بتبص لي بقالك فترة.

-لا أبدًا كنت سرحان ... عندنا كام حالة النهاردة ؟

-ست حالات ...

-ماشي ...عشر دقايق ودخلي أول حالة .

أعرق بغزارةٍ مرةً أخرى، أعيد ضبط تكييف الغرفة، ولكني أشعر بالحر ...لم أعرف كيف مضت العشر دقائق قبل أن تدخل ألفت لتضع ملفًا أمامي وتخرج ... وبعد وهلةٍ دقات على الباب لتدخل نرمين، نرمين سيدةٌ في منتصف الثلاثينات، جميلة، متوسطة الطول، عيناها ضيقتان وكأنها تحبس كل مشاعرها خلف عينيها الضيقتين، تبدو نرمين وكأنها واثقة من نفسها ، وهي تجلس أمامي، تتطلع إليَّ في هدوء، وكأنني سوف أقرأ عليها بعض كلماتٍ فتستريحَ، ملامح وجهها جميلةٌ ودقيقة، كيف لم أنتبه لهذا الجمال من قبل ؟!.

-عاملة إية النهاردة ؟

-مهو أنا جيالك عشان تقولي ؟

ابتسم ، فتبتسم مجاملة ليس أكثر...

نرمين تعتبر من أوائل المرضى لدي في عيادتي الجديدة، ثلاث سنوات أيضًا عمر إشرافي على حالتها، وكأنّ كلَّ شيءٍ أرتبط بالثلاث سنوات الأخيرة، حالة نرمين قد تكون لا حالة تقريبًا، وقد تكون كل مشكلتها أنها تعتقد بصدق أنها: مريضةٌ نفسية. أفعالها دومًا بدرجةٍ من الدقة كأنّها إنسانٌ آلي، أخطاؤها قليلة جدًّا حتى في عملها، ولكنها تصدق بعمق أنها تحتاج لعلاج، حاولت مرارًا أن أوضح لها أنها أكثر مني ومن كثيرين عقلاً واتزانًا، ولكنها تعتبر الأمر مديحًا من طبيبها الخاص، لحظاتٌ كثيرةٌ ظننت أنها تعشق الجلوس لتحكي، حتى ما تحكيه نادرًا ما أجد به عيوبًا تذكر، بكلِّ صدق أعتقد أن نرمين مرضُها الحقيقي هو غرامها بالطب النفسي ... فجأةً اتسعت ابتسامتي لتتحول إلى ضحكةٍ طويلةٍ، مما جعل نرمين تنظر لي متوجسةً وكأنها قالت شيئًا خطأً...لا أتذكر الآن ما الذي قالته نرمين ودفعني للضحك، ولكنني توقفت لها وأنا أعتذر: لأنني ضحكت معللاً أنّي تذكرتُ شيئًا مضحكًا حدث لي صباحًا، لا أعرف لماذا بدأت أنظر لعينيّ نرمين بقوة، وكأنني أدفعها أن تخرج كل ما بداخلها من هواجس، وأظنها أصابها فزع ما: لأنها اعتذرت عن إتمام الجلسة للمرة القادمة، ربما ظنت أنني أعبث بها. نرمين ؟ هند ؟... كيف لم ألحظ تشابه حرف النون في بداية اسميهما؟! لا يهم ...

غادرت نرمين ولم تمر دقيقة، حتى وجدت ألفت فوق رأسي، قالت: إن نرمين خرجت مهرولة فزعة. ولكنها اعتادت على مثل هذه الأمور، ولكنها جاءت لتطمئن عليّ، فأنني أبدو تعبًا منذ أول وهلةٍ ، وهل تدخلُ الحالة الثانية ؟ ...

هززت رأسي بنعم ...خرجت ولم تمر دقائق حتى وجدتها تضع أمامي كوبًا من عصير الليمون وهي تقول: إن الإجهاد واضح عليّ اليوم، وأنها أجلت الحالات للمساء...لم ألمها على تصرفها... ورجعت بالكرسي للخلف وأنا أتناول كوب الليمون منها، وهي تغادر الغرفة، لا أعرف ما الذي دفع نرمين لتفرَّ من أمامي؟! فهذا خارج عن تصرفات نرمين المعتادة .. فهي فتاة تتحكم في ردود أفعالها بدرجةٍ كبيرةٍ، هل أخطأت أنا في الكلام؟...هل تفوهت بشيء أفزعها وأنا شارد ؟ ...

لم أشعر بنفسي فجأةً وجدت الدنيا تذهب من أمام عيني، وكوب الليمون يسقط من يدي... وأظنُّ أنّه أُغمي عليّ وأنا جالسٌ بينما ذهب عقلي هناك... حيث عصام وهند .

وبداية الجريمة !!!

أشعر بثقلٍ في رأسي، أحسُّ بجسدي ممددًا على أريكةٍ، صورةٌ ضبابيةٌ وأنا أعود للوعي، أرى ملامح لجدرانٍ أحفظها جيدًا، أهزّ رأسي وأنا أحاول أن أعتدل... ألمح ظهر شخص يقف أمام المرآة يصلح من تسريحته ... أتكئ على ذراعي وأنا أعدل جسمي ...

صوته يأتي دافئًا ...

-انت صحيت يا بطل ؟

-إيه اللي جبني هنا ؟

- ولا حاجة كنت واقف مع ألفت في العيادة بسألها عليك، وفجأة سمعنا صوت كوباية بتتكسر... دخلت انا وألفت لقيتك مغمى عليك... مرضتش أروحك كده.

-وانت إيه اللي جابك العيادة النهاردة ؟

-وده سؤال برضه بلاش أسال عليك يعني ؟

كان الذي يحدثني هو عصام، وكانت الشقة هي مسكني القديم الذي تنازلت له عنه. بدأت أشعر أنني أعود لحالتي الطبيعية...حاولت أن أساله أسئلة كثيرة ولكن الكلمات توقفت في حلقي، عصام يبدو منسجمًا مع نفسه، يقف في هدوء غير مبالٍ بحالتي وكأنه تعود عليها...لم تمر دقيقة وهو يقطع الطريق من الصالة إلى المطبخ جيئةً وذهابًا حتى دق جرس الباب ...

-فيه حد جايلك ؟

قلتها وهو يرص صحونا فارغة أمامي ...

-تلقيه بتاع الدليفري انا طلبت لك وجبة ترم عضمك واضح انك مبتكلش كويس..

كدت أصرخ في وجهه – وهو يتجه ليفتح الباب - إنه السبب في حالتي تلك، هو بوجوده الطبيعي في حياتي ووجوده الغريب في كوابيسي وخيالاتي...

-كُلْ انت بقى بالهنا والشفا ...انا ورايا مشوار كده هخلصه .. ولما تخلص وتعوز تمشي .. اقفل باب الشقة وراك.

لم يمهلني وقتًا لأردَّ عليه وهو يتجه لباب الشقة ويفتحه ويغلقه خلفه في هدوء، لماذا يفعل كل شيء بهدوء، هدؤوه يثيرني ويصيبني بالجنون... أعود للعبث مرة أخرى أي جنون أقصد؟...إنها مجرد كوابيس مستفزةٍ تقتحم حياتي وسوف أتخلص منها قريبا، لابد أنه ضغط العمل... وضعت لقيمات بسيطة في فمي ورحت ألوكها، ورشفت عدة رشفات من العصير الذي وضعه عصام أمامي قبل خروجه..تأملت جدران الشقة بدت لي وكأنها غريبة عني، وكأني تركتها منذ مئات السنين هناك لمسة خاصة أضافها عصام للشقة، لمسة تدعو للارتياح وأنت تنظر لألوان الدهان الجديدة ... رحت آكُل في صمت، لا يقطعه سوى رنين قطرات من الماء تصطدم بحوض المطبخ ... غطيت ما تبقى مني وقررت الذهاب، سأترك الباقي ربما جاع عصام ليلاً، أو ليتخلص هو منه بمعرفته... أين ذهب عصام الآن ؟

فجأةً هاجس مجنون ضرب عقلي، ربما هو هناك حيث هند في شقتي !!

اللعنة !

الكوابيس أصبحت تأتيني وأنا صاح ...

فتحت باب الشقة وهممت بغلقه عندما سمعت الباب المقابل يفتح ، وسمعت صوتا مليئًا بالأنوثة...التفت، امرأةٌ أربعينية، عيناها مقتحمتان وكأنها تعريك من ملابسك، ما زالت ملامحها جميلةً ودقيقة برغم تجاعيد بسيطة أسفل عينيها تُظهر طول السهر ، تعودت أن أفحص بعيني الوجوه. ابتلعت ريقي دون سبب وهي تقول:

-ازيك يا دكتور محدش شايفك من مدة ؟

- الحمد لله بخير...

-ما تيجي تشرب حاجة..

-معلش مستعجل..

-ده انا كنت عايزة استشيرك في حاجة كده ...

-معلش مرة تانية عشان مستعجل..

لا أعرف كيف هربتُ من أمامها ومن أمام عينيها المقتحمتين النافذتين...حاولت أن أتذكر متى رأيت المرأة من قبل، ربما كانت جارتي منذ ثلاث سنوات ولم أنتبه حينها؛ لذا تعرفني وتعرف عملي ... أراحني هذا التفكير ... وإلا اتهمت نفسي بالزهايمر .

ضبطت نفسي متلبسًا وأنا أهبط سلم العمارة أنّني أعدُّ الدرجات.

أيٌّ هوسٍ أصابني هذا الصباح ؟!

أصبح باب العمارة أمام وجهي، هنيهة وسأقطعه، ولكني تنبهت إلى شكل سيارة وقفت أمام العمارة، أنّني أعرف هذه السيارة جيدًا، فهي سيارة ألفت !!

أهذا معقول ؟! إذن هناك علاقة بين ألفت وعصام، يجب أن أختفي من أمامها الآن حتى لا تراني، وجدت نفسي مختفيا أسفل درابزين السلم، بينما هي ترتقي الدرج في طريقها للصعود إلى الشقة.-أمعقول أنها تأتي إليه لهنا ؟ حتى لو افترضت هذا ما الدافع أن يتركني في الشقة ويذهب وهو من ضرب لها ميعادًا لتأتي إليه؟ أو أنّه نزل ليحذرها من المجيء ولم يسعفه الوقت؟ ربما سيعود الآن ...

يجب أن أذهب سريعًا، لم أجد سيارتي أمام باب العمارة ... بالتأكيد لم يأت عصام بسيارتي، مؤكد أنّه تركها في مكانها أمام العيادة ...شاورت لتاكسي، وأخبرته بوجهتي، وأنا أرمي بثقل جسدي على مقعد السيارة.

ذكرياتٌ كثيرةٌ تضرب عقلي وبعنف ...

صورة هند وهي تقف تتطلع لمائدة فارغة، ونظرات عصام إليها قبل أن يقف ويتجه إليها مباشرة، بينما رعشةٌ أصابت

أطرافي، وبرودةٌ في أناملي راحت تزحف... لوهلةٍ تحجرت عيناي وأنا أراه يُحدث هند في هدوء وكأنه يعرفها منذ مدة ويشير لها على مائدتنا...بينما رحت وقتئذٍ أطرح الأسئلة والأجوبة، ربما كانت معرفة سابقة له أو تعرف عليها بعد عودته من ألمانيا؟... لا أعرف كيف انتهت وقتها على وجود هند على نفس مائدتنا، وكانت تبتسم؟... ولا أعرف كيف بدأت معها الحديث؟... وكيف تناولنا يومها وجبة الغداء؟ ولا أدري كيف انسحب وقتها عصام وكأنه يعرف أنه جذب لي الكنز وعليّ أن أتصرف؟!...

أتذكر قصة شعرها الذي بدأت تداعبه بيدها، وأتذكر منظري وأنا كالتلميذ الخائب أودعها على باب النادي... كانت هي أشدّ جرأةً مني وهي تعطيني رقم تليفونها المحمول وتطالبني بالاتصال بها وقتما أشاء...ما الذي جذب هند؟...ذلك النور الملائكي الذي ضرب حياتي أن تتعلق بي أنا!...كيف بدأت العلاقة؟ وكيف انتهت إلى أننا أصبحنا زوجين؟... عند تذكري لهذا أرتعش جسدي بعنف لفت نظر السائق الذي قال:

-فيه حاجة يا أستاذ ؟

-لا أبدًا .. رعشة بسيطة.. برد يجوز ..

هزّ السائق رأسه في لا مبالاة، وراح ينظر للطريق أمامه...

بينما بدا لي أنه بلا نهاية .

***

(2)

لا أعرف متى وقفت السيارة، ولكني فوجئت بالسائق يتمتم العنوان يا أستاذ ...

تطلعت حولي لدقيقة قبل أن أهزّ رأسي، أهبط وأنا أعطي للسائق حسابه، وهو ينظر لي نظرة...

" ايه البلاوي اللي الواحد بيشوفها دي كل يوم " . ..

باب العمارة أمامي، كنت أريد أن أصعد؛ لأستريح قليلاً ، رغم أنّي لم أبذل أيَّ مجهودٍ يُذكر . ولكنني أرجأت الأمر . لا مجال للصعود الآن، لابد أن هند قلقةٌ على غيابي ...وجدت قدمي تسوقني إلى جراج العمارة، تطلعت حولي، الجراح هادئ، وخميس السائس غير متواجد، أين ذهب هذا الرجل ؟

أين سيارتي ؟ !!!

تطلعت للسيارات الواقفة في ذهول، مكان سيارتي شاغر . بحثت في جيوبي عن مفتاح السيارة فلم أجده ...

-هل أخذها عصام عندما أخذني لشقتي القديمة، وهل وصلت به الجرأة أن يذهب بها ليقضى مشاويره ولا يبلغني ؟!

أطلقت زفرة حارة. -هذا ما ينقصني الآن ...

أخرجت المحمول واتصلت بهند

جاءني صوتها هادئا :

-انت فين ؟

-انا تحت العيادة ...

-طيب .. جاي يعني ؟

-أها جاي ... هروح فين ؟

-طيب متتأخرش عشان ماما وعم توفيق قربوا يوصلوا؟

-ماما وعم توفيق .. خير ؟

- إيه يا أخي سنوية بابا انت لحقت نسيت؟ متنساش الطلبات اللي قولت عليها ؟

-طلبات إيه ؟

-يوووووووه ... أنا عارفة دايمًا بتعمل ناسي ... عمومًا هتلاقي ورقة الطلبات في جيب الجاكت، مطرح ما حطتها انت بايدك الصبح ياللا باي بقى ...

أغلقت الهاتف ورحتُ أفتش جيوب الجاكت، اصطدمت يدي بورقة مطوية، فتحتها؛ لأجد قائمةً بالطلبات التي من المفترض أن هند كتبتها لي، كيف نسيت ؟!

أشعر أنني اليوم مختلف، هناك شيء خطأ يحدث !...ليكن

-اللعنة !! السيارة !

طلبت عصام على المحمول، تليفونه مغلق، عجيب هذا الصديق، طلبته عدة مرات ولا فائدة !!

اتصلت بهند ، التي أتى صوته معاتبًا :

-فيه إيه تاني ؟

-العربية مش لقيها ؟

-عربية ايه ؟!! ما العربية انت سايبها لي النهاردة... انت غريب! ياللا بطل دلع بقى متتأخرش .

رحت أحك فروة رأسي بيدي بعنف، ما الذي يحدث؟ كيف تركت لها السيارة اليوم؟ هناك أشياء تحدث لي غير مفهومة بالمرة !...

وجدت خميس يدخل وهو يحمل ورقة جرنان مطوية، ألقى السلام عليّ مبتسمًا، خفت أن أسأله عن السيارة حتى لا أظهر أمامه بمظهر الشخص الذي فقد عقله...تطلع في عينيّ وهو ينتظر مني أن أسأله عن شيء، ولكنني صمتّ، وأنا ألقى عليه

التحية واتجه لباب الجراج، وهو يهزّ رأسه في لا مبالاة... ونظرة " سكان أخر زمن " تطل من عينيه ...

خرجت للشارع، كانت هناك نسمةٌ لطيفةٌ بدأت في الجو، نظرت للشارع نظرة خاوية من التفكير ، أحتاج إلى فنجان قهوة الآن . طلبات هند ؟ لا تهم !

جلست على مقهى في أول الشارع، طلبت فنجان القهوة الذي لم يتأخر عليّ ووجدته أمامي بعد هنيهة، نظرت لفنجان القهوة بشك غير مبرر، رفعته إلى شفتي وارتشفت عدة رشفات ولم أكمله، ناديت النادل وحاسبته، أوقفت تاكسي ورميت نفسه بداخله، وأنا أتمتم له بالعنوان... أشياء كثيرة راحت تضطرب عقلي ومناظر متعددة من الشرق والغرب، أبدو كطفل تائه يبحث عن يد أمه، رحت أعدُّ المفاتيح التي في جيوبي ، حاولت فهم كل ما حدث اليوم لي، ولكنني صدمت بأنني لا أفهم أي شيء، هناك جنون حادث بالفعل، ولكنني لا أستطيع أن أضع يدي عليه، هل تتعمد هند أن تصيبني بالشك في نفسي ، ولماذا ؟

ربما أخذ عصام السيارة اليوم إلى بيتي وظن أنني لن أترك الشقة قبل مدة، ولكني فاجأته باتصالي بهند، فادعت هي أنني تركت السيارة لها صباحًا، من المستحيل أن يكون ما حدث غير هذا !! ومن المستحيل أن يكون هذا ما حدث !!!...

أنا أكبر من تلك الهلاوس، ربما هو إرهاق العمل، وبالتأكيد هي الحالات الكثيرة التي أشرف عليها في الفترة الأخيرة؛ جعلتني مرهقًا لأقصى درجة، فأخفى عقلي الباطن بعض الأحداث عن عقلي الظاهر حتى لا أنهك، هذا مبررٌ أشدُّ قناعة لي...

فتحت شباك السيارة، وأخرجت سيجارة ورحت أنفثها، لماذا ألمح نظرة فضول دائمًا في نظرات سائقي التاكسي ؟

كلا، لا داعي لأرهق نفسي بالتفكير، رميت رأسي للخلف مسترخيًا، لكن الذكريات راحت تضطرب في رأسي بعنف أكثر...

خبطات على باب غرفتي في عيادتي القديمة، ثوان ورأيت عصام يدخل، ينظر لي باسمًا كعادته وبهدوئه المقيت يقول لي :

-ابسط يا عم لو تعرف مين جاي معايا برة هتقوم تفز من على كرسيك تبوسني .. قوم فز...

-فيه إيه .. إحنا في العيادة بطل هزار ؟

-يعني أخدها وأمشي .. طيب انا الغلطان اللي قولت لها انك الوحيد اللي ممكن يساعدها .. بأي يا حتة ؟

-بطل هزارك السخيف ده وقولي مين برة ؟

-هند .

وجدت نفسي بالفعل أقفز من فوق الكرسيّ، وهو يفتح الباب لها؛ لتدخل هند، وتصطدم عيناي بعينيها الساحرتين،

لم أشعر بالعيادة ولا الأرض من تحت قدمي، ولا أعرف متى انسحب عصام وأنا أدعوها للجلوس ... دقائق وعيناي لا تريان إلاّ عينيها، بلعت ريقي عدة مرات، غصت بكلي داخل عينيّها، كان الإرهاق واضحًا عليها، وكانت هناك نظرةٌ حزينةٌ مكسورة تطلُّ من خلف العينين، هربت الكلمات من بين شفتيّ، لكن في النهاية وجدت الحديث بيننا يجري كمياه شلالٍ هادر، يدي تقترب من يديها وتحتضنهما، تبدو الدموع الحبيسة تأخذ طريقها في وجنتيها، أمدُّ لها منديلا فتتلقاه في هدوء، تجفف العبرات المنسابة من عينيها اللوزتين، أيّ جحيمٍ فتحته هاتان العينان في وجداني، لا أعرف كم مضى من الوقت وهي تحكي، وتحكي وأنا أستمع ولا أستمع، أغوص حولها، تبتلعني بحور شفتيها، وأعود إلى شط وجهها، أتأمل كل تقاسيم الوجه، أكاد ألتهم الكلمات التي تفرؤ من شفتيها ... أحاول أن أبدو متفهمًا ومستمعًا جيدًا، انتهت من كلامها، فبدت القصة أمامي غريبة.

أبوها... ذلك العملاق الاقتصادي المعروف الذي يرهبه الجميع يعيش في حالة اكتئاب مزمن، اكتئاب حاد ومدمر منذ وفاة أخيها الوحيد، حياته كلها توقفت منذ هذا اليوم، أنها لا تدري كيف تستطيع أن تساعده... ولا تعرف كيف قد يكون الطبُّ النفسي مساعدًا له في هذه الحالة، هي أيضًا، حياتها منذ وفاة أخيها ليست على ما يرام، البيت كله أصابته الشيخوخة فجأةً..

الموت الذي ضرب أرجاء فيلا أبيها حمدي السيوطي فقوضها وجعلهم شتات ... كلٌّ منهم اعتزل عن الآخر تقريبًا، وكأنما كان الأخ هو بؤرة الالتقاء بين أفراد الأسرة ..

حكت الكثير يومها، وبرغم الحزن الذي ينبض في كلِّ كلمةٍ خرجت من بين شفتي هند، لكنّي كنت سعيدًا للغاية، ربما تفكيرها فيَّ، وربما إحساسها بأنها تحتاجني في هذه الفترة من حياتها، لا أعرف تحديدًا كيف شعرت بالسعادة البالغة مع كل هذا التشاؤم في كلماتها ... وقتها طلبت منها أن تحدد لي مقابلة مع والدها، قالت: إنّه قد يرفض، من المستحيل إقناع شخص بحجم حمدي السيوطي بالطبِّ النفسي أو حاجته إلى هذا العلاج، جاءت ضربتي وقتها مزلزلة لكيانها كله، ودموعها راحت تنساب كشلالٍ هادر . لا أعرف كيف وجدت نفسي فوق رأسها وأنا أطلب منها أن تحدد الميعاد؟! على أنني شاب يطلبها للزواج، لا أعرف كيف أفسر نظرتها حينئذٍ، ربما كانت نظرة متفهمة، متعجبة، لا تعرف ما أطلبه هل هو حقيقي أم مجرد حجة لأدخل بها البيت ... لم تكن تدري وقتها أين الخيال وأين الحقيقة في كلامي ؟

ولكن عندما تأكدت أن طلبي حقيقي مائة بالمائة، كانت عيناها تنطقان بآلاف الكلمات، ويداي تحتضنان يديها في شوق لا نهائي ....

- أتفضل يا أستاذ وصلنا.

قالها السائق بحدة غير مبررة ... نظر للخارج فاصطدمت عيناي بالعمارة ...

نزلت، وأخذت طريقي إلى الداخل ومع كل درج سلم، كانت الذكريات تتكاثر على حواف شطٍ عقلي وأغرق فيها، وذكرى نظرةٍ غريبةٍ تضرب عقلي في عنف...

نظرةٌ تقتحم كياني وتشلني، نظرة حمدي السيوطي لي !!

مددت يدي بالمفتاح ألجه في ثقب الباب، فتحت الباب ودخلت.

هناك طقس من الحزن يسيطر على البيت ... اتجهت للصالة لتصطدم عيناي تقريبًا بنفس نظرة السيوطي القديمة ، ولكنها هذه المرة من توفيق عم زوجتي ... فجأةً شعرت بأن الدنيا تختفي من أمامي ... وأنا أستند على جدران الشقة التي أشعر أنها تتماوج تحت يدي، قبل أن أسمع صوت هند صارخًا ، وأنا أسقط في غيبوبتي ...

***

(3)

ريقي جاف، أحاول أن أحرك لساني ، لا أستطيع، سخونةٌ رهيبة تلهب وجهي، عيناي لا تريان أي شيء، أحاول أن أفتح عينيّ، أجد صعوبةً بالغةً في هذا، أضغط على أعصابي لأحاول أن أرى، السخونة تزداد من حولي، أشعر أن جسدي يحترق، أفتح عينيّ بصعوبة بالغة، أرى أشكالاً مشوشةً أمامي، أحاول أن أرفع يدي لأمسح العرق الغزير الذي يسيل من جبيني، لا أستطيع، أحسُّ أن لا وجود ليدي، ما هذه الحالة؟ ... مجمد في لهيب نيران! ، هذا هو الشعور الحقيقي الذي يخالجني الآن ، أين أنا ؟ ...

لا أستطيع أن أميز بوضوح، أخر ما أتذكره هو نظرة عم هند لي، ثمّ، ثم، لا أتذكر بعدها أي شيء ...

صوتٌ هامسٌ له فحيحٌ عجيب يصمُّ أذنيّ، إنني أعرف هذا الصوت جيدًّا، مستحيل !!

-كيف أسمعه الآن، إنه هو... حمدي السيوطي !!..

لا أستطيع أن أنسى صوته أبدًا، نبرة صوته الأجش تخترق أذنيّ، نعم إنني لا أدرك أو أفهم ما الذي يقوله لي الآن ولكنه هو... هل يعود الميت للحياة ؟!!!

إذًا حدث هذا ستكون أول حالةٍ في التاريخ يعود فيها ميتٌ للحياة ويوم سنويته، هناك شيءٌ خطأ، بل هناك عبثٌ يحدث، عقلي يحاول أن يفرض المنطق على الحكاية ، ولكن فحيح صوت حمدي السيوطي يمنع ذلك ، أحاول أن أهزّ رأسي فلا أستطيع، أشعر أنني بلا رأس في الأساس، هناك عقل فقط، عقل في فراغ رهيب، الصوت يزداد قوةً، كلماته تبدو كأنه يوصيني بشيءٍ ما، ربما تحمل كلماته التهديد، والوعيد ...

أحاول أن أتنفس، هواءً، أريد هواءً...

تخرج شهقةٌ كبيرةٌ من بين شفتي...

لأفيق ...

هند تقف على رأس السرير، بينما يقف عمها بجوارها، والأم تنظر في عينيّ بشدة، تنتابني كحةٌ لعينةٌ، أجد يد هند تعدل جسدي الذي أشعر به الآن، ولكني لا أحكمه بالكامل، ما زال هناك تعبٌ ما يفصل أوامر عقلي لجسدي، هناك تأخر في كهرباء المخ ...

-يا له من كابوس مزعج !

-ما الذي يريده مني حمدي السيوطي الآن ؟!

أتاني صوت هند بلهفة:

-عامل إيه دلوقت ؟

-الحمد لله ... جرى إيه ؟

-مش عارفة، انت كنت داخل فجأة وقعت قدامنا.

-ارهاق باين ... اتفضلوا انتم .. حغسل وشي واحصلكم على الصالة ؟

جاءني صوت الأم محايدًا كعادتها دومًا :

-بلاش تتعب نفسك...

-لا أبدًا ... اتفضلوا ادوني بس عشر دقايق وحصلكم.

هزت هند رأسها وهي تقول لأمها وعمها بهدوئها الدائم وابتسامة رائقة :

-ياللا يا ماما هو شكله بس بيدلع عشان يشوف غلوته عندنا.

نظرت لي الأم، قبل أن تتحرك وتبعها العم الذي لم ينطق بكلمة ولكن نظراته كانت كافية لتصل الرسالة " ياريتك مت يا شيخ وغورت في داهية " ...

وتبعتهما هند في صمت ...

يكرهني عم زوجتي دون سبب، دائمًا أرى في عينيه نظرة الكره، التي لم يحاول مرة أن يخفيها حتى يوم زواجي بهند، كانت

تهنئته مصحوبة بتلك النظرة العجيبة. ما الذي يريده هذا الرجل من حياتنا أنا وهند؟ نظرت للمرآة كان الشحوب مسيطرًا على كل ملامحي، أحاول أن أهدأ قليلاً؛ لأستوعب كل ما حدث لي اليوم من مفارقاتٍ تدخل في حيز المستحيل ...

لا يشغلني الآن سوى أن أفصل نفسي مؤقتًا عن حالة الأحلام الغريبة التي تنتابني، وعن ذلك الكابوس الأخير الذي ظهر لي فيه حمدي السيوطي .

دخلت الحمام، أخذت دشًا باردًا فما زلت أشعر بحرارةٍ داخل جسدي، بل أشعر أنّي مررت منذ دقائقَ وسط نيرانٍ ملتهبةٍ...الماء ينساب عليّ من أعلى وتنساب الذكريات معه ...

صوت عصام مقتحمًا:

-تفتكر أبوها هيوافق على جوازك منها ؟

-وميوافقش ليه ؟

- انت شكلك مش عارف مين حمدي السيوطي؟

-لا عارف طبعا...وعارف ان عندي قدرة على اقناعه بالموافقة على جوازي من بنته ...

- عموما انا كان نفسي أجي معاك ... بس انا مليش في الجو ده ...يا للا يا بطل عشان متتاخرش...

أغلق الدش بهدوء وأنا أتلقى آخر دفعات الماء المنساب ... أنشف جسدي، وألفُّ نفسي بالروب وأخرج للغرفة، أتطلع للمرآة وكأنني أرى شخصًا آخر، أفتح الدولاب وأبدأ في اختيار بذلةٍ مناسبةٍ للحدث، يصل لي من الخارج صوت الشيخ عبد الباسط، هدوءٌ أكثر ينتاب جسدي، أشعر أنني الآن أتحرك بنعومةٍ عن ذي قبل، هذه البذلة مناسبة، أعقد رابطة العنق ، وأنظر للمرآة للمرة الأخيرة، وأخرج للصالة، كان المعزون قد بدءوا يتوافدون، نظرات بعضهم لي كانت مترقبة كالعادة، عائلة زوجتي أراها في المعظم عائلةً مجنونة، ينظرون لي على أنني من أخذ فاكهة العائلة وفرَّ بها بعيدًا عن أيديهم ... بدأت أتلقى التعازي في هدوءٍ وتماسك، أمُّ هند ترمقني من وقت لآخر بنظرةٍ مترقبة، بينما أهرب بعينيّ بعيدًا عن نظرات الكره العميق التي تطلُّ من عين عمها توفيق، هذا الرجل بعينيه الجاحظتين، وكرشه الذي يحتل حيزًا هامًا في جسده، ووجهه الذي يبدو كوجه نمرٍ يستعد للانقضاض على فريسته، كل هذا كان يصيبني بالتوتر في وقت ما، ولكني الآن أتأمله وأضحك بداخلي، حتى نظرات كرهك لي لا تهمني، لكن في نفس الوقت أتجنبها، هناك طاقةٌ سلبيةٌ يصدرها لي هذا الرجل، طاقةٌ ربما هي ما جعلتني طول الوقت أبدو متشائمًا أكثر من اللازم، فسرها المعزون على أنني حزين بالطبع على وفاة حماي العزيز ، ولكن هل من الممكن أن أحزن على حماي ثلاث سنوات ؟!

لماذا لا يلغون تلك العادة المقيتة " السنوية " ؟!

وكأننا نتعمد أن نجلب الحزن ونستحلبه لأخر قطرة، لا يهم، المهم أن ينتهي هذا اليوم على خير، ويخرج الجميع مبسوطًا ...

كدت أضحك كيف يخرج الجميع سعداء في ليلة حزنٍ كهذه الليلة...

أخذت فنجان القهوة واتجهت متسللاً للبلكونة، أحاول أن أرتشف هدوء المكان مع القهوة ... لم تمرَّ دقيقة حتى وجدت يدَ عصام تربت على كتفي ...

-تعيش وتفتكر...

-انت جيت أمتى ؟

-لسه من دقايق .. بس مش هقعد كتير.. انت عارف طقوس الموت والكلام ده مش بتاعي.

-يعني جاي في إيه وماشي في إيه ؟

-بلاش نعمل الواجب يعني!! ... انا غلطان ... وبعدين عم مراتك ده شكله بيزعجني حاسس انه كاره الدنيا.

-هو كاره نفسه ..

-يا عم انا نازل وسط البلد ... لو فضيت أبقى تعالى ... ياللا سلام يا حتة ...

انسحب عصام للداخل قبل أن أراه يغادر الشقة... تركني مع فنجان قهوتي الذي أصبح باردًا فجأةً... أريد أن أقلل من القهوة هذه الأيام، لأعد مرة أخرى للجلوس بين المعزين، أتلقى منهم نظراتٍ مفهومةٍ وغير مفهومةٍ... أشعر وأنا أنظر في أعين من حولي أنّي أسبر أغوار كلٍّ منهم ... أعشق الإبحار في العيون، فخلفها تقبع الحقيقة التي نحاول أن نداريها أحيانًا..

يمرّ الوقت وتنتهي تلك الليلة الطويلة، أودع حماتي وعم زوجتي للباب، أتأمل هند وهي تطبع قبلات على وجه أمها، انسحب لغرفة النوم تاركا كلمات زوجتي تأخذ مكانها في أذن أمها: متغبيش علي بقى يا ماما ... خلى بالك منها يا عمي ... أنا مش عارفة انتي ليه مصممة تسافري النهاردة ... كان يجرى إيه لو جيتي سكنتي جنبي وسيبتك من اسكندرية ... طيب برحتك .. كلميني أول ما توصلي.

أسمع صوت الباب يغلق وأنا أرتمي بجسدي على السرير وأنا بكامل ملابسي ... تدخل هند بعد دقائق قضتها في توجيه الشغالة، أراها فوق رأسي مبتسمةً، أمدُّ يدي لأخطف يديها ... تقول باستغراب :

-عايز إيه ؟!

أشدُّها بقوةٍ أكثر لترتمي في حضني، وهي تحاول الفرار من بين يديّ وهي تتلوى في هدوء...

-بطل جنان ؟ الناس لسه ماشية ؟ ودي سنوية بابا ؟

آخذ شفتيها بين شفتي، تقاوم لثوان وتخبط كتفي في دلع، لا أعرف لماذا أصرُّ على أن آخذها اليوم بشدة، انتابني خاطرٌ غريب وأنا أفك عنها فستانها، أن هذا الشوق يحدث لي بهذه القوة كل سنة وفي نفس اليوم ، يوم سنوية حمدي السيوطي، وكأن الحب ارتبط معي بالموت ... رميت كل هذه الأفكار جانبًا وأنا أخوض معها معركة الحب ... ترتفع أمواجها وتهبط، ينساب رحيقها حولي، أشعر أنّي في ليلة عشق من ليالي ألف ليلة وليلة، أنّي السلطان وهي جاريتي، أنّي القائد شهريار الليلة ، وعلي أن أقضي وطري منها قبل أن آمر مسرورًا صباحًا بقطع رقبتها ، تلمس شفتاي رقبتها وأشعر بمتعةٍ تفوق كلَّ متع الحياة وهي تتحول بين يديَّ لأنثى تدرك كلَّ أسرار الحب والإمتاع، إنّي الملك!

ارتميت على السرير بجوارها بعد انتهاء إبحارنا معا وأنا أنظر في عينيها، كانت هناك خلف العينين تلك النشوة الكاملة...

-انت مجنون !!

قالتها في دلال منتشي، كدت أهتف مسرورًا، ولكن الذي خرج من بين شفتي ضحكةٌ طويلة، جعلتها تنظر لي بعجب أكثر وهي تقول:

-قال دكتور نفسي انت مريض نفسي ..

لفتْ ملاءة السرير حول جسدها وأنا أشد الملاءة برفق، فقالت وهي تسحب الملاءة من بين يدي وتتجه للحمام: "لأ .

تغلق باب الحمام خلفها، أقف لأفاجأ بنفسي عاريًا أمام المرآة ، ولكن ما جعلني أرتجف بشدة وصوت هند يأتيني من الحمام – جبت الطلبات اللي قولت لك عليها _ كانت تلك الصورة التي تنعكس أمامي في المرأة بجواري، فقد كنت أراه يقف مبتسمًا لي بنظرة متنمرة ... إنه هو حماي ... حمدي السيوطي بكامل أناقته يقف بجواري... بينما أقف أنا عاريًا تمامًا.

وجسدي يرتجف إلى ما لانهاية وصوت الماء المنساب فوق جسد هند يصل إلى أذني... وشفتا حمدي السيوطي تتحركان بكلمةٍ أسمعها الآن بوضوح ...

- سأقتلك ....

***

(4)

لم أعرف متى ارتديت ملابسي، وجدت نفسي في سيارتي، والسيارة تقطع الطرقات في اتجاهها إلى وسط البلد.

لم يكن يشغل تفكيري شيء منطقي، بل كلُّ ما يدور في ذهني عبارة عن خيالاتٍ مجنونة تطارد بعضها بعضا مطاردةً مجنونة .

ألمح أضواء النيون على واجهة المحلات التي تفرُّ من أمامي، يرتجف جسدي وأنا أحاول أن أطرد وجه حماي الميت من ذاكرتي، ومنظره وهو يلقي بكلمته إليّ:.. سأقتلك !

لا أعرف أين سأضع الرحال، ولكني تركت لعقلي الباطن مهمة أن يسوقني كيف يشاء، المارة قليلون في هذا الوقت، والليل يفرش سكونه على الطرقات، وأعمدة الإنارة تبدو كأشباح فرسان يطلقون عليّ سهامهم النارية ...

عصام ، وجدت نفسي أردد اسمه في لهفة ، ووجدت نفسي أغير اتجاه السيارة؛ لتأخذ الاتجاه المعاكس، قبل أن ألمح سيارةً من بعيد تضيء نورها في وجهي مع صوت سائقها، بعد لحظات

عندما اقترب مني بشتيمة قبيحة. ظهر لي بعد دقائق بار "ديجا فو" ذلك البار الذي اعتاد عصام السهر به، وكان اسمه دومًا مضحكًا بالنسبة لي مع شخصية عصام، الذي كان يؤمن دومًا بنظرية حدث من قبل وهذا ما جعله يختار هذا البار لسهراته.

ركنت سيارتي وأنا ألمح بعض الخارجين من البار منتشين بفعل الخمر الرخيص في الأغلب، لوهلةٍ وقفت ألتقط أنفاسي قبل أن أدلف للداخل، راحت عينايّ تبحثان في المكان لعلني أجد عصام على أحد المقاعد، ولكن لم يظهر له أثر... هل من الممكن أن يكون غادر مبكرًا، أيّ مبكر ؟!
الساعة تشرف على الثالثة صباحًا، كيف لم أتصل به ؟

أخرجت المحمول و اتصلت به، ما زال تليفونه مغلقًا ... نظرات الفضول راحت ترمقني من آن لآخر، كنت قد قررت المغادرة عندما لمحت عصام يخرج من الحمام، كان يفرغ مثانته بالتأكيد، لمحني فاقترب ناحيتي مبتسمًا:

-إيه ده معقولة ؟ إيه اللي جابك ؟

-مش عارف ..

-مش عارف ؟!! طب تعالى ...

-بجد مش عارف ... وبعدين انت يا عم مش ناوي تفتح تليفونك ابدا ؟

-وده وقت حد يفتح فيه تليفونه تعالى..

سحبني من يدي واتجهنا إلى أحد الموائد الشاغرة، شاور للنادل طالبا منه زجاجة " Jack Daniel's"

-هتشرب معايا ؟

-انت عارف انا مبشربش من مدة طويلة ؟

-طيب .. فيه خمر "arkay" خالي من الكحول بدعة جديدة .. هجبلك قزازة ..

-زي بعضه ؟

-مالك ؟

-مفيش ؟ أنا هقوم أمشي ...

-اقعد يا جدع بطل لعب عيال ...

شدّني من يدي لأجلس بعد أن وقفت، وكان النادل وقتها يضع زجاجة الخمر أمامنا، صبَّ لنفسه كأسًا وراح يرشفه في تلذذ، بينما أتأمل تفاصيل وجهه، الذي بدا لي وكأنّني لا أعرفه ، عندما يشرب عصام يختفي ذلك الهدوء الذي يسيطر على كل أحواله، يتحول فجأة لشخصية "Power " تتعجب من أفعاله، ولكنه يحترق بسرعة شهاب...وقد تصيبك الدهشة عندما تعمل مقارنة بين الذي تقابله نهارًا وبين هذا نفس الشخص الذي تقابله ليلاً في بارات وسط البلد ...

رحت أتأمل وجوه من حولي، الكل يهرب ! ولكن بطريقته، ولكن كيف أهرب أنا من أحلامي المجنونة، وكيف أهرب من وجه حماي المرحوم العزيز، ارتسمت على شفتي ابتسامةٌ وأنا أتذكر اللقب الذي طرحته على حماي " المرحوم العزيز "... وارتفعت ضحكتي عاليةً بغتةً، ربما لأساير الجو حولي، نظراتٌ كثيرةٌ رطمت وجهي، فاكتفيت بأن أشيح نظراتي عنهم...

راح الوقت يمضي وأنا صامت لا أعرف ما الذي أريد أن أفعله تحديدًا؟ أنظر للناس حولي بلا شعور تقريبًا، وكأنّني خارجٌ عالمهم، أشاهدهم على شاشة سينما تعرض نماذج مزيفةً من البشر . عدت بعينيّ لعصام الذي بدأ يزيد من احتسائه للخمر ، وهو ينتظر مني أن أتكلم، جاءني صوته مهتزًا بعد لحظات بفعل الخمر :

-انا عارف ؟

بلعت ريقي وأنا أتأمل ملامح وجه عصام الذي بدا أنه قد سكَر بالفعل...

-عارف إيه ؟

-عارف اللي انت مش عايز تقوله ؟

-هزارك بقى سمج زيك ؟

-تحب اقولك من امتى ؟

لأول مرة أرى تلك النظرة في وجه عصام، أنه يتحداني بنظراته، يحاول أن يقتحم عالمي الداخلي، هل من الممكن أن يكون قد عرف أنني أشاهده في أحلامي يمارس الجنس مع زوجتي؟!! أم أنه عارفٌ أنّي أشك في أن له علاقةً بزوجتي ... أي عبث هذا ؟!

شعرت بثقل رأسي بغتةً !

وكأني سكرت بالإنابة، ابتسمت ابتسامةً شاحبةً وأنا أهمس :

-انت متأكد أن " arkay " دي خالية من الكحول .

لم يرد عليّ، فقررت أن أتركه لحاله وأحاول أن أستعيد تركيزي ...

تشاغلت عنه بمتابعة وجوه الرواد مرةً أخرى، وكلما كنت أعود بعينيّ لوجه عصام ألمح تلك النظرة مع شبح ابتسامةٍ غامضةٍ . لا أريد الآن أيّة حواراتٍ جانبيةٍ تزيد من

تعقيدات حياتي هذه الأيام، لن يجرفني عصام لمنطقةٍ أخرى لا أعرف كيف أعود منها ....

قررت أن أقوم، كان عصام يرتشف أخر كأس من الزجاجة

فنظر لي، وعندما هممت بالوقوف كان هو قد تجرع الكأس للنهاية، لمحني واقفا فابتسم:

-رايح فين ؟

-كفاية كده ؟

-مش عايز تعرف انا عارف ولا لأ؟

-مش عايز أعرف حاجة ... انت سكران ..لما تفوق نبقى نتكلم ...

-برضه ، هتعمل علي دكتور نفسي .. ماشي ..بس افتكر إني قولت لك إني عارف وانت رفضت تسمعني.

-ماشي يا سيدي ، ياللا بينا عشان أوصلك في طريقى ..

-تفتكر طريقك هيوصلني ؟

-يا عم بطل أم الرزالة ومتعمليش فيها نيتشه..

حاسب عصام، وسحبته من يده في اتجاه سيارتي، كان السُكر قد وصل به لدرجةٍ عاليةٍ، ما الذي يفعله في نفسه؟... أيُّ عبثٍ آخر؟، " ديجا فو " ...اللافتة تضيء بشدة، أشعر الآن أن كل شيء يتكرر بالفعل، وقد حدث من قبل، كم شخصًا مثلنا خرج من هذا البار؟ وكم شخصًا مثلنا يمر بما مررنا به، ويشعر للحظةٍ أنه شاهده من قبل ؟! انطلقت بالسيارة في اتجاه شقتي القديمة، نظرت في جيب ، المفتاح ما زال معي، لا وقت لديّ لأفتش عصام حتى أستخرج منه مفتاح الشقة، أسمعه يسبُّ شخصًا يعبر بجانبه بشتيمةٍ مقززة، أطرد خاطرًا ينتابني بأن أخرجه من السيارة وأتركه بحالته هذه على

الرصيف، أنا الذي كنت أريد من يساعدني لأطرد شبح حماي الذي أصبح يطاردني في أحلامي، ارتميت في حضن سُكر عصام وخمرته، لوهلةٍ انتابتني رعشةٌ؛ لأنني شعرت أنّي ألمح عيني حماي في مرآة السيارة ...

لم أعرف كيف وجدت نفسي أسفل العمارة وأنا أسند عصام لأصعد به إلى شقته، ومع كل درج سلم كنت أشعر بجسده أكثر ثقلا، وكأنه يرمي بحمله كله عليّ، مددت يدي في جيبي وأخرجت المفتاح، وأنا أترنح من الثقل المرمي على جسدي، أجلسته على الكنبة، وفردت أقدامه، وذهبت إلى المطبخ، ولعت على "الكنكة"، بللت فوطة ورجعت، ورحت أمسح بها وجهه، وهو يهرب بوجهه بعيدا عن يديّ، بدأت همهماته وكأنه يعنفني: ابعد عني ...

لا أعرف لماذا شعرت بالأسى لحالته؟ ما الذي يدفعه ليفعل في نفسه كل هذا؟ عدت للمطبخ بعد وهلةٍ رميت الفوطة في الحوض، صببت كوب القهوة، وعدت للصالة، كان عصام يترنح في طريقه للحمام، حاولت أن أجرى لأساعده، ولكنه أشار بيده أن لا داعي، قفل على نفسه الحمام ، مرت دقائق كنت قد أنهيت قهوتي، وجهزت نفسي للعودة للبيت، هند بالتأكيد أصابها الجنون من تصرفاتي ، وبالتأكيد تسبني الآن، نظرت للحمام الذي لم يغادره عصام بعد ، لا يهم ...

قمت وفتحت باب الشقة، وأغلقته ورائي ، لم تمر هنيهة مع نزولي ثلاث درجات سلم، حتى سمعت الباب يفتح وعصام يقف وقد لفَّ شعره بالفوطة، نظرت له وهو ينظر لي نظرةً غريبةً قبل أن يقول في بساطة متناهية: ...

-كنت فاكرني بهزر لما بقولك إني عارف ... انا عارف فعلا .. عارف انك قتلت ...

وأغلق الباب بعنف، من هذا المجنون ؟!

صعدت ورحت أدق على الباب بشدة، ولكنه لم يفتح وأغلقه بجسده وأنا أحاول أن افتحه...

سمعت تكة باب خلفي يفتح ... كانت تلك المرأة الأربعينية المتصابية ، نظرت لي وهي تقول:

-خير يا دكتور هو فيه حاجة ؟

أشحت بيدي، ورحت أنزل السلالم بعصبيةٍ زائدة، وقد تركت بابًا خلفي موصدًا، لكنني أملك مفتاحه...

(5)

كل شيءٍ يتحطم أمامي بصورة مفزعة، حياتي نفسها شعرت أنها على وشك الانهيار.

ما اللعبة التي يلعبها عصام معي بالضبط؟ وهل ما قاله أعتبره نوعًا من الهلاوس التي لن يفيدني التساؤل عنها أيَّ شيء؟!...

أفكارٌ كثيرةٌ ومبعثرةٌ لا أستطيع أن ألمَّ خيوطها الآن... أشعر بحاجةٍ ماسةٍ إلى الهدوء والتركيز ... صورة حمدي السيوطي أصبحت لا تفارقني الآن تحديدًا، حتى أصبحت أنظر لهند محاولًا أن أخرج حمدي السيوطي من بين ملامحها، لها نفس الفم ؟ نفس العيون ، نفس الابتسامة ، طريقة الكلام؟ ...

فجأةً أصبحت الحياة كلها حمدي السيوطي.

بدأ الخوف ينمو بداخلي لدرجةٍ أصابتني بالرعب بدأت في تناول أدوية...

" clonazepam and alprazolam "

أدوية الفاليوم أصبحت أتنقل بينها في سرعةٍ غبية، هند بدأت تلاحظ هذا منذ آخر مرة زرت فيها عصام يوم سنوية أبيها وعدت صباحا ولم تسألني وقتها أين كنت ...

الرعشة أصبحت تصيبني ليل نهار ، العيادة منذ أسبوع أتصل بألفت أؤجل المواعيد ...

الذي لا تفهمه هند أني أصبحت أشاهد أباها طوال الوقت، حتى وأنا أطبع على خدها قبلة الصباح، أراه يرمقني بتلك النظرة الغريبة، صورة عينيه المنعكستين دوما في مرآة السيارة، لا أعرف لماذا الآن ؟

دخلت العيادة، والتوتر ما يزال فاردًا جناحيه على كياني كله، ألفت تنظر لي نظرة غريبة هي الأخرى... ما الذي يحدث بالضبط لي؟ عصام أيضًا منذ آخر مرة لا أعثر عليه، ذهبت أكثر من مرةٍ إلى بار " ديجا فو " ولم أجده، لا أريد أن أعطي لكلامه أهميةً كبيرةً يكفيني حماي العزيز وألعابه السمجة معي ...

أدخل غرفة المكتب ... أضيء النور الخافت، ألقي بجسدي على الكرسي، أتأمل غرفة مكتبي كأني أراها لأول مرة .

تدخل ألفت تضع فنجان القهوة أمامي وملف الحالات وتخرج، أنظر في الملفات بلا مبالاة، كلكم تشتكون وتحكون وربما تستريحون ... ولكن أنا من أحكي معه ؟ عصام اختفى

وتليفونه مغلق، وهند من المستحيل أن أخبرها فستظن بي الجنون . هل أذهب لطبيب نفسي !

جعلني هذا الخيال أضحك بشدة، لم تمر دقائق حتى أخبرتني ألفت بقدوم نرمين، أول الحالات وأخبرتني أنها طوال الأسبوع المنصرم كانت تتردد على العيادة ...

-لتدخل ... دخلت نرمين، نظرت لي وكأنها تراني لأول مرة وراحت بهدوء لتنام على " الشيزلونج " وبدأت تحكي ...

لم أفهم كثيرًا مما تقوله، ربما لم أجمع كل ما قالته وما زالت مستمرة فيه، ولكني ألمح تلك النظرة العجيبة من عينيها، نظرة رجاء واستغاثة، لأول مرة تبدو نرمين أمامي بهذا الضعف ماذا حدث ؟

وسط ما هي تحكي بغتة !

قامت لترتمي في حضني وتبكي وهي تقبل وجهي بشدة وتبحث بشفتيها عن شفتي وأنا أبعدها برفق قدر الإمكان ... دفعتها برفق لتجلس مكانها، استسلمت لي بهدوء، لا أعرف ما الذي دفعها لما فعلته ؟

جاء كلامها مشوشا :

- لامتي هتفضل علاقاتنا في السرّ، أنا تعبت .. بقالي أسبوع مش عارفة اقابلك ... اخر مرة وانا ببص في عنيك خفت ... حسيت انك ممكن تقتلني عشان حد تاني. ..

رحت أربتّ على يد نرمين وأنا أدعوها للاسترخاء ، لأول مرة منذ سنوات أشعر أن نرمين مريضة، بل أنها كونت في خيالها علاقة بيني وبينها ...حقًا كان الأمر مفاجئًا لي... لم أتصور نرمين سوى فتاةً مرفهةً تضيع وقتها في أن تحكي لطبيب نفسيّ أيَّ شيء، مضيعة للوقت، ربما كانت لا تجد في حياتها صديقة تحكي لها، فقررت أن أكون أنا جهاز التسجيل الذي يسجل حكاياتها العادية طوال الوقت، ولكن اليوم هناك حكايةٌ جديدة، حكاية تصنعها نرمين لأكون أنا أحد أطرافها ... كانت قد انتهت من البكاء وراحت تمسح دموعها، وتعدل مكياجها، لماذا لم أنتبه طوال هذه المدة أن حكايات نرمين دومًا منطقية ومرتبة ودقيقة؟ كيف لم أجد التفسير الواضح أمام عيني منذ البداية، إنها تخترع تلك الحكايات، وربما تكون هي شخصية أخرى لا تمرُّ بتلك الحكايات طوال الوقت، تحكي لي لأن لا وجود لحكاية طبيعية وحقيقية في حياتها، إنه الخواء، تؤلف من الخواء الحكايات الكثيرة، لماذا لا يكون مرض نرمين هو أنا ؟

أنا الذي تحاول أن ترضيه دوما بحكاياتها البسيطة، أنا المادة الخامة التي تنقش هي عليها الأسرار التي هي في الأصل ليست أسرارًا...

رحت أعبث بسن القلم في ورقة أمامي، لا أعرف من أين أبدأ الأسئلة...

-من أمتى وأنتي حاسة ان فيه علاقة بينا ؟

-حاسة !!

وانطلقت ضحكتها تجلجل في الغرفة، ثم سلطت عينيّها عليّ.

- انت عايز توهمني ان علاقتنا مش حقيقية ... دي بقى نكتة .. أوعى تفكر انك تحاول تستخدم معايا الطبّ النفسي بتاعك وتفهمني اني مجنونة...فوق احنا بقالنا سنين مع بعض؟

ابتسمت في وجهها نصف ابتسامة لأمتص حدة كلامها ، وأنا أكتب لها أدوية معينة، لأول مرةٍ تقريبًا أكتب لها أدوية، بينما هي مستمرة في أنها لن تتخلى عن علاقتنا حتى لو عملت أنا مجنون . ولكن المفاجأة وهي تأخذ مني الروشتة لتنظر فيها قبل أن تمزقها في تحدٍ كانت جملتها: ...

-مش هنزله يا دكتور لو كان ده غرضك عشان تجنني ؟ مش هنزله ؟ وهتشوف ...

وأخذت طريقها لباب الغرفة قبل أن تغلقه بعنف وتذهب، نظرت للباب وأنا أهزّ رأسي، وضغطت على الجرس لتدخل ألفت الحالة الثانية، سألتني: لماذا تجرى نرمين وهي تبكي، فهززت رأسي ولم أعطها إجابة، فابتسمت وهي تتمتم: " تصرفات مجانين "...

تدخل الحالة الثانية، أحاول أن أركز معها، أرمي كل ما يشغلني خلف ظهري، أشعر مع دخول وخروج كل حالةٍ أنّني استعيد حالتي الطبيعية، وأن كل ما مرّ بي في الأيام الماضية كان مجرد إجهاد فائق للجسد، أراحني هذا التفسير كثيرًا، وخصوصًا وأنا أودع ألفت وأخرج من باب العيادة منتشيًا من انتهاء يوم عمل شاق وأنا بكامل حيويتي الصحية والنفسية، أشعر برغبةٍ في الخروج للهواء الطلق، ورغبة في الجري، لم أحبَّ يوما أن أركب المصعد، يشعرني دومًا بالخوف... كنت آخذ درجات السلم قفزًا... أشعر إنّني أشدُّ سعادةً من الكثيرين، زوجةٌ محبة، وعيادةٌ في منطقة راقية، وهدوءٌ عائلي محبب، لا يعكره سوى أحيانًا حنين هند للأمومة، كلُّ الأطباء أجمعوا أننا من الناحية الطبية لا وجود لأيّ عيب ولكن الحمل لا يأتي، لكننا تخطينا هذه المرحلة منذ فترة وتركنا الحياة تمضي بهدوء برغم الإلحاح الخفي الذي أراه في عين هند أحيانًا، ولكن كل هذا لا يهم، المهم أننا سعداء، هي تشعر معي بالسعادة بكل تأكيد وإلا لما تزوجتني، لم أحلم يوما بأكثر من هذا ...

أتذكر يوم تقدمي لخطبتها كأنه بالأمس، أول مرة تلتقي عيناي بعيني السيوطي، كان مساء شتاءٍ وكنت قد جهزت نفسي لكل الردود المعتادة في هذه الحالة، وحيد، أبي وأمي متوفيان، أملك شقةً متواضعة، لي عيادة مشتركة مع أصدقاء، ومرتبي وما شابه من الأمور التي دوما أسمعها في المسلسلات، ولكن كل هذا لم يكن ليسألني فيه حمدي السيوطي، كنت

أدعي أنني قارئٌ جيدٌ للعيون أستطيع أن أفسر كل شخص من عينيه، ولكن مع حماي العزيز فشلت في هذا ...

استقبلتني يومئذٍ أمها بنظرة متفهمة... تفحصتني من فوق لتحت وربما قالت في خيالها: " شكله مش بطال " ...

قالت آنذاك: أن زوجها أمامه بعض الوقت في الشركة طلبوه لأمرٍ عاجل وأنه على وصول فلا أقلق. تجاهلت الأمر بالتأكيد، فما يهمني هو هند، فانتظرته وأنا أحاول أن أبدو مبتسمًا، مرت ساعة قبل أن يأتي حمدي السيوطي، دخل وهو يلقي نظرةً للمكان وكأنه يرى ما الذي جد جديد عليه؟ نظر لهند، ثم نظر لي وابتسم وهو يقول: " هو ده "...

هزّت هند رأسها في سعادةٍ طفولية، فعاد بعينيه مرةً أخرى لي لينظر في عينيّ بشدةٍ ، ثم قال: "مش موافق. "

وتركنا ليأخذ طريقه لأعلى، بينما أخفض يدي التي كنت أمدها له بالسلام...

اعتذرت الأم وقتئذٍ وتركتنا لترى زوجها ، بينما أوصلتني هند إلى باب الفيلا وهي تعتذر وتضع المبررات العديدة أن السبب الأساسي هو حالته النفسية منذ وفاة أخيها، كل هذا لم يكن يشغلني وقتها بقدر تلك النظرة المقتحمة التي زلزلت كياني من عين حمدي السيوطي ... وقتها صممت أن تكون هند لي مهما كانت صعوبة الأمر...

ارتفع سباب شخص مرَّ بسيارته من جانبي: " خد يمينك يا حمار"

بلعت ريقي وأنا أنظر للأمام، كيف وصلت لهنا لابد أنّني سرحت كثيرًا ، إنني قريبٌ من بار" ديجا فو" لأنظر بالداخل ربما رأيت عصام، دقيقة وكنت أركن السيارة أمام البار، وأدخل، البار هادئ قليلا الآن، لم يزحف عليه بعد زبائن آخر الليل، نظرت إلى المكان بتفحص، شعرت بحاجةٍ ماسة إلى كأس من الخمر لا أعرف لماذا؟ جلست، وطلبت زجاجة من " Omar Khayyam" ... لم تمرَّ وهلةٌ وجدتها أمامي، أردت أن أرتشف كأسًا أو اثنين وأخرج، مع الكأس الثالثة وجدت يدًا تربت على كتفي، كان عصام الذي نظر لي ضاحكًا:

-ايه اللي رماك على هنا ما كنت بعقلك ؟

-انت فين يا عم اسبوع بدور عليك ؟

-خير ؟

-لا ابدا.. اخر مرة شفتك كنت انت تعبان وبعدين اختفيت؟

-رحت إسكندرية يومين ولسه راجع ؟

رفع زجاجة عمر الخيام بين يديه ونظر لي مبتسمًا، وهو يصبُّ لنفسه كأسًا... وجرعه دفعةً واحدةً وعندما مدَّ يده ليصبَّ مرةً ثانيةً أمسكت يده:

-عايزك فايق ..

-كاس كمان ونقوم نمشي ... انا زهقان اصلا ؟

رفع الكأس الثاني على فمه، ثم قام، حاسبت النادل وتركنا المكان ... سألني على مكان سيارتي، فأشرت إليها فاتجهنا إليها ركبنا السيارة وانطلقت بها، وأنا أحاول أن أمسك نفسي عن السؤال.

فنظر لي وهو يقول:

-عارفك عايز تسأل في ايه ؟

-يعني ايه ؟

-يعني عارف انك عايز تسالني عرفت منين انك قتلت حمدي السيوطي حماك.

بلعت جملته وكأنّني لم أسمعها، بينما تبدو ابتسامة غريبة على شفتيه ...

-ما تخفش مش هبلغ عنك ؟

-انا كنت عايز اتكلم معاك بس واضح انك سكران انا هرميك على باب العمارة واروح .

دفعني بيده فاهتز مقود السيارة بين يدي وهو يعنفني أنه ليس بسكران، و أنّني لو استمريت في الإنكار فلن يكون أمامه إلا تبليغ البوليس ... تركته يهذي ولم أشغل بالي بما قال، وعند

باب العمارة، فتحت له باب السيارة ودعوته للنزول ... فضحك، فكررت: انزل ...

نزل، بعد عدة نواصي، وقفت بالسيارة ألتقط أنفاسي، وفتحت تابلوه السيارة ونظرت بداخله ... وكان هو هناك يقبع مكانه " مسدسي " ...أغلقت التابلوه وأنا أدوس على دواسة البنزين وصورة حمدي السيوطي تنعكس على مرآة السيارة ...

(6)

أشعر باختلاف في طعم العصير الذي أمامي، أردت أن أنادي الجرسون ليرفع الكوب ويغيره، منذ أيام وأنا أشعر بطعم مرارةٍ حقيقي في فمي، ربما هي الأدوية التي رحت آخذها بصورةٍ ضخمة هذه الأيام، أتأمل تفاصيل المكان حولي، إنها نفس الكافتريا التي كانت شاهدةً على أول لقاء مرتب جمعني بهند، أصبحت أحبُّ تواجدي هنا على فترات متقطعة، العيادة أصبحت أهملها بعض الشيء، ولكنني أحاول أن أقاوم الهواجس التي تضربني في مقتل نرمين، أصبحت عائقًا جديدًا، يضاف إلى كلِّ الأشياء التي تحدث في الفترة الأخيرة، عاد عصام للاختفاء مرةً أخرى، لم ألتقه منذ آخر مرة هلوس فيها بكلام غير مفهوم عن قتلي لحمدي السيوطي، دعابة سمجة، لم أظنّ يومًا أنني سوف أتعرض لهذا النوع من الدعابات، قتل !!

لم أعرف من أين جاء له الخيال بهذا الأمر . الكوب أمامي ممتلئ عن آخره بالعصير . والناس حولي ممتلئون بالفراغ، ما زال إحساس الخواء هو المسيطر عليّ، نرمين قالت: إنها

ستقابلني اليوم خارج العيادة، وهنا تحديدًا، لا أعرف كيف عرفت أنني دائم الجلوس في الفترة الأخيرة هنا، لم أرد الرفض حتى أفهم، على الأقل لأساعد نفسي في فهم نرمين التي اختلفت نظرتي لها بعد آخر جلسة، هي أيضًا ترمي الكرة في ملعبي، تزيد من ترددي في تحديد نوع حالتها، أشرت للجرسون أن يغير لي العصير، أخرجت برشامة وضعتها تحت لساني، وشعرت للحظة أن اليد التي تدفع البرشامة لفمي ليست يدي، مرت الدقائق بطيئة ومملة، مباراة كرة يتابعها الحاضرون بشغف، وقد قسموا بعضهم نصفين، البعض يشجع برشلونة والجزء الآخر يشجع ريال مدريد، أشعر أن هناك إزعاجًا ضخمًا، حالة من الترقب للشاشة وهتافات وسباب، حالة من الشحن الغريب، من هذا الشعب ؟! من هؤلاء ؟!!

ما لهم وريال مدريد وبرشلونة، أمزجة !

وأخيرا لمحتها تدخل، صورة أخرى لا أعرفها ، يبدو الشحوب على وجهها ، وتبدو كأنها تسحب قدميها بثقل، هل هذا معقول أهذه نرمين؟!، تلك الفتاة الدؤوب على العمل، الناشطة لأقصى حد، أراها اليوم بصورة مختلفة وكأن قد صدمها قطار، أشرت لها؛ فاقتربت وهي تنظر للحاضرين الذين لم يهتم أحدٌ لدخولها وقتها؛ لأن الكرة كانت في قدم ميسي ...

أشرت للجرسون أنني سأغير الترابيزة بعيدًا عن الإزعاج الحاصل حولنا، وطلبت كوبا آخر من العصير لنرمين، حاولت

أن أبدو متماسكًا أمام نفسي على الأقل ... صرخ الجميع: جووون، فألقيت نظرةً وعدت لنرمين التي كانت قد جلست أمامي وبدا أن هناك الكثير من الكلام تريد أن ترميه في وجهي، ابتسمت نصف ابتسامة وأنا أقول:

-جون .. ميسي ...

هزّت رأسها بلا اهتمام، وأخذت ترشف العصير أمامها في صمت... ران الصمت علينا لدقائق بدت لي أنها ستستمر للأبد، ولكنها بدأت تبتلع ريقها،وتداعب شفتيها بلسانها ثم أتى صوتها هامسًا ضعيفًا

-انا مش عارفة ارضيك ازاي ؟

-ترضيني ؟

-انا مش عايزة علاقتنا تفشل ... انا رحت للدكتور من شوية...

-هاه وبعدين.

-قالي مستحيل ... مستحيل التخلص من الجنين دلوقتي ... خلاص فات الوقت.

-وانتي عايزة تتخلصي من الجنين ليه ؟

نظرت لي وكأنها تكلم مجنونًا، وابتلعتْ ريقها، قبل أن تنطق

-انت عايز تجنني ؟

-بالعكس .. عايز اعالجك ؟

- تعالجني ... ماشي يا سيدي ... انا عارفة اني تعبانة.. يعني خلاص؟

-خلاص ايه ؟

- غيرت فكرتك وهنحتفظ بالجنين ومش هتقولي خطر على حياتي والكلام الفارغ ده.

حاولت أن أشرح لها أن الأمر لا يهمني من بعيد أو قريب وأن الجنين والتخلص منه ليست مشكلتي، راح صوتي وسط الهتافات العصبية: لقد تعادل ريال مدريد، حاولت أن أفهم منها أي شيء، لكن من الواضح أنها كانت عصبية زيادة عن اللازم، وأنها تحت ضغط عصبي غير مفهوم لي على الأقل، وراح سؤال يفرض نفسه بداخلي، هل نرمين حامل بالفعل أم أنها تعيش حالة جديدة غريبة؟ حاولت أن أتذكر هل حكت لي من قبل عن زوجها أي شيء، وللأسف وجدت أنني لا أعرف حقًا أيّ شيءٍ عن زوجها، أشرت لها بعد دقائق أننا من الصعب أن نتكلم وسط هذا الإزعاج المميت، ومن الأفضل الانصراف ...

-زي ما تحب ..

قالتها نرمين ببساطة متناهية وكنت أظن أنها سوف تتمسك بي أو على الأقل ستحتد علي في حالتها تلك ولكن بدا أنها راضية لحد ما، غادرنا المكان وأشرت لسيارتي، وكنت أريد

أن أنهي المقابلة بأي طريقة، المقابلة خارج العيادة أشعر أنها لن تفيدها أو تفيدني في تشخيص حالتها في شيء ...

قالت وهي تتجه للسيارة وتفتح الباب: ...

-وصلني عشان متأخرش على الشغل ...

ركبت نرمين بجواري، وساد الهدوء السيارة وأنا أقطع الشوارع، كنت أعرف مكان شغلها من قبل؛ فأخذت الاتجاه بدون أن أسألها أين، بعد وهلةٍ عادت بعينيها لي وتطلعت لوجهي، وبدت ابتسامة رقيقة على شفتيها الورديتين:

-هعتبر الكلام اللي انت قولته وعد...بس خلي بالك لو رجعت فيه مش هسكت ...

هززت رأسي بالموافقة وأنا أتطلع للإشارة الحمراء أمامي وهي تردف :

-انت متعرفش انا مبسوطة دلوقتي قد ايه ؟

حاولت أن أقاطعها: " نرمين "

ولكنها استدركت:

-حبيبي انت متعرفش الطفل ده بيمثل لي ايه ؟

لم أعرف بماذا أجيبها فلزمت الصمت، الإشارة خضراء الآن، وصوت سرينات من حولي يتعالى، دفعت بقدمي دواسة البنزين؛ فأطلقت السيارة صريرًا مزعجًا، جفلت نرمين:

-بالراحة

-حاضر

أخير وصلنا إلى مكان عملها، أعطتني ابتسامة أخرى ومالت بجذعها لتطبع قبلة على خدي وهي تفتح باب السيارة... ولم أعترض خوفًا من ردة فعلها آنذاك...

-هستناك في البيت أوعى تتأخر عايزين نحتفل بعيد جوازنا النهاردة !

-عيد جوازنا !

-حبيبي انت دايما بتنسى كده، معلش لازم أفكرك، متنساش الهدية بقى ...باي عشان أتاخرت ...

تركتني نرمين وراحت تصعد سلم البناية إلى عملها تطلعت لها في شبه شرود، أيّة حالة من الجنون تنتاب هذه المرأة؟ منذ فترة كنت أظنها مريضة نموذجية، كنت أظنها لا حالة أصلا، الآن الأمر يزداد توترًا، فوجئت أنني أعدُّ بعينيّ سلالم الدرج الذي تصعده نرمين، فابتسمت، وجدتها تعطيني التفاتة بسيطة قبل أن تدفع الباب الزجاجي لتدخل، لوهلةٍ بعدها ظللت أتطلع للفراغ تقريبًا، شعرت أننّي أقف في فراغ، والبنايات من حولي تتصدع، وكأننّي داخل فيلم أجنبي، حككت ما فوق حواجبي بأظافري، قبل أن أدوس على دواسة البنزين، لتنطلق السيارة معطية صريرًا أشدّ إزعاجًا ... ضربت أذني جملة من شخص بجواري:

-تلاقي أمك اللي جيبهالك ؟

بلعت جملته والسيارة تمضي بي، لم أعرف إلى أين أتجه هند عند أمها في إسكندرية منذ أمس، وعصام لا وجود له في الحياة وتليفونه مغلق، فجأةً انتابني خاطر مزعج رهيب كالعادة أن اختفاءه مرتبط بسفر هند، أيُّ جحيم أفتحه على نفسي، لا، لن أدع ذلك التفكير يسيطر عليّ، قررت الاتصال بهند، تليفونها يعطيني رنينًا ولا ترد، أين هي الآن؟ ربما نائمة ؟؟ تركت التليفون وأنا أقول لنفسي ستتصل هي عندما تصحو، لا أعرف لماذا راحت الأفكار المجنونة تتصاعد في عقلي بهذه الصورة المزعجة، حاولت أن أهدأ نفسي، وبلعت برشامة أخرى مهدئة، قررت أن أفعل ما يفعله الناس، سوف أعود للكافتريا لمشاهدة الشوط الثاني من المباراة متمنيا الفوز لبرشلونة !

***

(7)

كوب الشاي أمامي منذ ثلاث ساعات تقريبًا ... منذ أن دخلت هند غرفة مكتبي وطلبت منها أن تجهز لي العشاء مصحوبًا بكوب من الشاي، عادةٌ قديمة وربما صارت لازمةً لي ، لا أستطيع أن أبتلع أي طعام دون الشاي، ارتشفه في رشفاتٍ سريعةٍ ساخنة قبل أن يبرد وأنا ألقم فمي لقمة وراء أخرى، أعدت لي الشاي والعشاء وتركتني وذهبت لتنام وهي تطبع قبلة على جبيني وتعاملني كطفلها المدلل كثيرًا. ملفات كثيرة أمامي وحالات أهملت دراستها خلال الأسبوعين المنصرمين . أتطلع إلى الأوراق ولا أكاد أفهم أي حالة تخص مَنْ، منذ عادت هند من الإسكندرية وظهور عصام مرة أخرى في حياتي أصبحت شديد الحذر من أي خطوة أخطوها. ألمح في عينيها تساؤلًا ولا أستطيع أن أفهم فحواه، هل هي تدينني لأنّي لم أذهب إليها هناك عندما طلبت أم أن الأمر أكبر من ذلك؟ .أشعر أن هناك أشياء تخفيها عليّ، ملامحها الرائقة ووجهها الذي اكتسب نضارة

البحر وحضوره كان يعكس أشياء كثيرة لا أفهمها، لكنني صمتّ ولم أحاول أن أسألها عن أي شيء، حتى لم أمارس معها المعاشرة الزوجية منذ يوم عودتها ، هاجس دفعني للابتعاد عن جسدها، تطلعت للشاي البارد والعشاء الذي لم أذق منه لقمة واحدة بلا مبالاة، ورفعت عينيّ أتطلع لساعة الحائط وعقرب الثواني يتحرك ماضيًا في طريقه في رحلةٍ محمومة للإلحاق بعقرب الدقائق، فجأةً ارتفع رنين هاتفي المحمول، نظرت للنمرة المتصلة أنه المقاول، ضغطت زر استقبال المكالمة، جاء حديثه طويلًا وجافًا، كان يريد دفعة جديدة من الحساب، ويخبرني أنه على وشك الانتهاء من المستشفى الخاص الذي يبنيه لي منذ فترة ...

-اللعنة! ألاّ يشبع هذا المقاول من الدفعات ؟

حلم المستشفى الخاص كان يراودني منذ فترة طويلة جدًّا، ربما منذ تخرجي، لم يكن إنجاز هذا الحلم ممكنًا دون وجود هند وأبيها في حياتي، أغلقت الهاتف بعد عدة مهاترات حسابية عقيمة بلا داعي...

رفعت كوب الشاي البارد إلى شفتي وجرعته دفعةً واحدةً وكأنّني أنتقم للكوب تركي له كل هذا الوقت في مكانه، مكالمة المقاول الآن دفعتني لبحر حمدي السيوطي – مرة أخرى - والذي كنت أظن أنني نسيته في الساعات السابقة ؛ لأنه بدأ يزورني في أحلامي الآن بصورة مكثفة، خصوصًا منذ عودة هند

من الإسكندرية وكأنه يحاربني في معركةٍ خاسرةٍ مقدمًا بالنسبة له على الأقل الآن. كوابيس كثيرة أراها وأراه يخنقني فيها ، أقوم مفزوعًا مرتعشًا، آخذ حبةً مهدئةً وأحاول العودة للنوم، ما الذي يريده السيوطي مني، ألم ينتهِ بعد ؟

أي هواجس مجنونة تحاصرني الآن، أتذكر منظره وهو محاصر بعيني في المستشفى، كان يعرف بالتأكيد، عيناه المتسعتان المحدقتان في فراغ غرفته في المستشفى واللتان ترمقانني بمجرد دخولي عليه كانت تؤكد لي أنه يعرف، ولكنه لا يستطيع التواصل أو الشكوى، كان قد دخل في مرحلة هذيان وهلاوس، لا رجعة فيها، كانت نظرتي واضحة إليه، ألم ينتهِ بعد؟

قمت من على المكتب بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على كوب الشاي الفارغ ، وضغط زر النور ، ليعوم مكتبي في ظلام، بغتةً شعرت برعشة عجيبة، فلقد خيل لي أنني أرى بؤبؤي عين حمدي السيوطي يلمعان في ظلام الغرفة، أضأت النور لثانية بعدها وأنا أهزّ رأسي رافضًا ما يحدث، ثم قررت أن أترك نور المكتب مضاءً، شعرت بغصةٍ في حلقي وأنا أتحرك في تؤدة، ذهبت لغرفتي كانت هند تغط في النوم، وصدرها يعلو ويهبط في انسيابية عجيبة، وجدت نفسي أتطلع لها قبل أن أدلف بجسدي بجوارها، تململ جسدها لثوان وكأن الجسد يخبرني أنه علم بوجودي بجواره، أزحت خصلة شعرها عن عينيّها،

وتطلعت لوجهها الملائكي، كانت تشبه الأطفال في نومهم، بالتأكيد تلك النظرة التي أراها في عينيها هذه الأيام هي من كلام أمها، ربما قالت لها: لماذا تستمرين معه وهو لا ينجب؟ أمها ما زالت تعتقد أنّي السبب وأن هند تغالطها حينما تخبرها أن الأمر ليس بيدي أو يديها وأن لا عيب هناك، ربما هذا الذي يجعلها في غير حالتها، اعتدت على هذا منذ فترة، لم تخبرني هند صراحةً، ولكنني كنت أشعر بهذا بعد لقائها بأمها، حتى في مضاجعتي لها تختلف الطريقة، كانت وقتها تحاول بكل جهدها ونحن في حالة الحب أن تبتلعني بالكامل لو صح التعبير ... وكأنها تريد أن تؤكد لنفسها أننا قادرين على أن نفعلها، أشتهيها الآن ... لكن قد أكون مجنونًا في وجهة نظرها: أن أوقظها الآن لكي نمارس الجنس، لا داعي لمزيد من العك في علاقتنا ، أتململ في السرير أحاول النوم، ولكن النوم يخاصمني، وفي نفس الوقت أخاف من أن أنام فيأتي لي السيوطي بكابوسٍ جديد، ما زالت كلمته تدويّ في أذني أحيانا: أهو هذا؟! ... لم كنت بهذا الجبروت أيها السيوطي؟ أكان لابد لكل ما حدث أن يحدث؟ لماذا لم توافق يومها على خطوبتي من ابنتك ، لماذا ؟

وضعت يومها مئات المبررات لنفسي ولكني فشلت للوصول لنتيجة سوى أنك بنظرةٍ واحدةٍ قررت أن تحتقرني، وكان لابد لي أن أردّ لك الصاع صاعين مهما حدث ... آنذاك جاءت فرصتي على طبقٍ من ذهب، عندما جاءت هند لي وقالت: إنك تمر بأسوأ أزمةٍ نفسيةٍ منذ وفاة أخيها، وأنك أحيانا تكلم

نفسك وتستدعي ابنك الميت لتخاطبه، تقفل على نفسك باب غرفتك وتستدعيه من داخل ذكرياتك لتتحدث معه. طلبت من هند وقتها أن تصف لي الحالة بالتحديد، ومتى وكيف تتمالك نفسك؟ وهل يكون الاكتئاب الذي يأتي لك مصاحب للهلاوس؟ كان لابد لي من الاستمرار مع هند وبأي ثمن، فأنت لم تكن تعلم كم كان حبها يتغلغل في كياني كله، لحظةٌ واحدةٌ وإحساسٌ لثوانٍ أنّي سأفقدها كان يصيبني بالجنون، حتى مع كلام عصام وقتها أن أنسى وأعيش الحياة كان جنوني يتعاظم ، أتظن أنني كنت أتركها لأجل حماقتك واحتقارك لي ، وأترك تلك النظرة من عينيك لي تمضي دون عقاب ...

-الأدوية التي كتبتها لهند بعد متابعتي لحالتك الصحية مع طبيبك البشري كانت الحل، ودفعتني للاستمرار، كنت أعطي لهند أدوية أخرى لتعطيها لك، وكانت تلك الأدوية تزيد من حالتك دون أن ينتبه كل من حولك أنها السبب، لقد خدمتني بعض أمراضك الجسدية حتى لا يظهر السبب واضحا أمام أيّ شخص، كنتَ تضعف يومًا بعد يوم، أتذكر تلك النظرة العجيبة التي ألقيتها عليّ وأنا أقف فوق رأسك في فيلتك؟ تلك النظرة التي كانت تقول لي: إنك فهمت، عندما عرفت أنّني طبيبٌ نفسي متابعٌ لحالتك من خلال ابنتك، ولكنك برغم الصراخ الذي صدر من شفتيك، والذي كان يشبه صراخ شخصٍ يخوض معركته الأخيرة مع الحياة لم يفهم المحيطون بك وبي أيَّ شيء، ويوم قررت أن آخذك للمستشفى الخاص الذي كنت أعمل به وقتها، كنت أضع حجر النهاية للعبة بيني وبينك، ثلاث شهورٍ كان عمر وجودك بالمستشفى الخاص،

وكنتُ أنا المتابع الوحيد للحالة بناء على تعليمات هند للإدارة والتي هي بناءً على تعليماتي التي أعطيتها لهند، لم تشك للحظة أنها السبب الحقيقي وأنها من قتلتك، حتى وأنت تحتضر بين يديّ كنتُ أتألم، فلم تذهب نظرة الاحتقار من عينيك لي، ولكنني لم أبال، فأنت كنتَ على حافة النهاية، وكان عليكَ أن ترحل لأبدأ أنا ... فهل كنتَ تظن أنني سأتركك؟! وأترك هند، وأنسى حلم المستشفى الخاص، كنتَ واهمًا يا سويفي، وللآن وأنت تطاردني في أحلامي ما زلت واهمًا، فالفرصة التي تأتي وأقتنصها لا تعود، شددت الغطاء حولي جسدي وأغلقت الأباجورة بجانبي، ولمحت وجه السيوطي منعكسًا لثواني في مخيلتي، ولكن على شفتي ارتسمت ابتسامة مجنونة ...

ابتسامة تحدٍ.

*****

(8)

الأمر برمته كابوسٌ جديد، فلا شيء يهمني الآن ، اعتدت على هذه الكوابيس في الفترة الأخيرة إذا لم يكن حمدي السيوطي يكون عصام وهو يضاجع هند ويخرج لي لسانه ليغيظني، أرى نفسي أخوض بحرًا من النيران ويدٌ تمتد لي لتنتشلني لأفاجأ بنرمين تقف مادةً يديها لي وهي تحمل طفلاً نصف ميت، ونصف حي، شيءق أشبه بلحمةٍ حمراءَ يشوبها زرقان دموي ، أصبحت آتي العيادة قبل ميعادي، تلاحظ ألفت هذا، وكثيرًا ما ضبطتني نائمًا في العيادة في الأيام الماضية، كان التساؤل يطرح نفسه بشدة، هل هناك خلاف قائم بيني وبين هند؟ لكنها احتفظت بسؤالها لنفسها برغم أنني أراه في عينيها ملحًا .

نرمين جاءت للعيادة مرتين، وقالت: أنني يجب أن لا انشغل بالعمل عنها، فهي من تحمل جنيني ، لا أعرف كيف أتصرف مع نرمين؟ خصوصًا بعد أن أصبحت مريضةً بالفعل، كنت قد تعودت على أنّي مجرد جهاز تسجيل، تسجل معه حوارها وتنصرف بعد أن تدفع ثمن الكشف، ولكنها أخذتني لمناطق

غريبة من الحكي أصبحت بطلها، قررت أن آخذها لطبيب بشري لأثبت لها أن لا حمل هناك، وأن الأمر كله تهيؤات لعقلها لا أعرف كيف أتتّ إليها وكيف نمتّ بداخلها، اللعنة على فرويد ويانج وكل أطباء النفس، أيّ هوس هذا الذي يصل بمريضة إلى أن تدعي فجأةً: أنها حامل من طبيبها. والأكثر دهشة أنها تدعي أنها زوجت، دخلت ألفت وقالت: أن لا أحد هناك بعد...وإنها أجلت حالتين للغد كما أخبرتها... شكرتها وأخبرتها أن تنصرف فإنني جالس قليلاً ، هزّت رأسها وغادرت ...

سمعت صوت غلق باب العيادة الخارجي، أظن أن ألفت تستحملني منذ أن جئت بها لهنا، كانت تعمل معي في المستشفى الخاص، وربما كانت تظن أنها ستتزوجني، ذلك الحلم العجيب الذي يدور في ذهن فتيات التمريض، أنهن سيتزوجن الأطباء الذين يعملون معهن، أيُّ وهمٍ لذيذٍ هذا؟ ولكن مكافأتها الحقيقية عندما أستلم المستشفى الجديد سوف أجعلها كبيرة الممرضين، وربما أجعلها سكرتيرة، فهي تحفظ تصرفاتي أكثر مني أحيانا ... رن جرس العيادة، بالتأكيد أنها نرمين، ذهبت لأفتح الباب في تؤدة، فتحته وجدته يقف أمامي وابتسامة غريبة على شفتي، وجدت نفسي أقول في دهشة :

-انت ايه اللي جابك دلوقتي ؟

أزاحني بيده ودخل وهو يقول:

- مالك يا كوتش .. ايه معاك حد ؟

وأعطاني ابتسامة مع غمزة عين .

- معيش حد طبعا .. اتفضل .

سبقني إلى غرفة المكتب، وراح يحدثني عن شكوى هند مني وإهمالي لها في الفترة الأخيرة، وبما أنني صديقه الوحيد لجأت له هند، وعليّ أن أعود للمنزل أصالح زوجتي، أردت أن أصرخ في وجهه ما دخله بكل ما يحدث في علاقتي بهند ولكني صمتّ، بينما راح هو يتأمل المكان في غموض غريب وكأنه يراه لأول مرة مما دفعني للتساؤل وأنا أجلس :

- إيه شايف حاجة غريبة ؟

- لا ابدًا بس تصور لأول مرة أقيس مساحة العيادة ... حلوة .

- هي ايه ؟

- مساحة العيادة ؟

- قصدك ايه بالظبط ؟

- معندكش حاجة تتشرب... مالك مضلم الدنيا كدة ؟

- ما تبطل شغل الافلام العربي ده واركز في حتة ؟

- طب ياللا بينا بدل مش مستني حد ... ولا مستني حد..

اضطررت للكذب عليه دون أن أفهم لماذا، بالطبع أدركتم أنه عصام بسخافته التي زادت كثيرًا هذه الأيام، دفعته لباب

العيادة وأغلقت النور ونزلنا ... لم تكن لديّ رغبةٌ بالطبع أن أخبره عن نرمين، حتى لو أتت نرمين الآن فستعلم أننّي غادرت وبإمكانها أن تكلمني وقتها، وسأجد طريقةً للتخلص من عصام وسخافته، ولكن الذي أراه في عينيه ونحن نتجه لجراج العمارة يبدو صادمًا، يبدو أكثر من السخافات المعتادة، أوقفني في نصف المسافة وشدّ يدي بقوة وهو يقول :

- أنا هحتاج العيادة بتعتك ؟

- يعني ايه هتحتاجها ؟

- عجباني وعايزها ؟

- ما تبطل يا أخي الهزار البايخ ده ... طبعا ضارب وجاي تفوق علي .

- انا بتكلم جد ...

- يا حلاوة .. جد ...

- طبعا ... العيادة عجباني وفي حتة حلوة ... وبيتهيألي بعد المستشفى الجديد معدتش انت محتاجها ...

- أه عايز تشتريها يعني ؟

انطلقت ضحكة عجيبة من بين شفتي عصام قطعها بقوله:

- اشتري منين يا كوتش ... هو انا حلتي حاجة اشتري بيها ... ما انت عارف كله ضايع وقبل ما يجي كمان..

- تكنش فاكرني أبوك ولا حاجة وهتورثني ... اركب ...لف اركب وبطل هطل .

ابتسم تلك الابتسامة العجيبة التي أتاني بها اليوم، و هو يتمتم:

- لا فكرك حمايا...

فأشحت بوجهي وأنا أدير محرك السيارة، إلى ماذا يرمي عصام بجملته الأخيرة؟ أهو تهديد ؟ ولكن ما الذي بيده ليهددني به؟ أكثر من ثلاث سنوات مضت على وفاة السيوطي، فلماذا صبر عصام هذه المدة لو كان يعرف شيئًا؟ اللعنة ! ينقصني كابوس جديد ، ليكن !

كان يجلس بجانبي وراح يتطلع للطريق بلا مبالاة وكأنه لم يقل أو يفعل شيئًا منذ دقيقة... لمحته بنظرةٍ سريعةٍ وجدت يده تعبث في تابلوه السيارة وهو يقول :

- معكش بفرة ؟

أطلقت زفرة ورحت أتطلع للطريق والمارة، التفت عندما وجدته يوجه إلى وجهي مسدسي وهو يقول

- إيه ده انت ناوي تقتل حد ؟

ضغطت دواسة الفرامل بعنف...وأنا أبلع ريقي بصعوبة

- رجع المسدس مكانه ؟

- وانت شايله ليه ؟

- رجعه وانت ساكت ؟

أخذ يدير المسدس في يده عدة مرات قبل أن يضعه في مكانه مرةً أخرى، لا أعرف كيف نسيت هذا المسدس، أدرت محرك السيارة مرةً أخرى ولكنه راح يعاكسني، حاولت أدارته كثيرًا وبلا فائدة كأن السيارة هي الأخرى تعاندني ... نظرت لعصام بغيظ ... فابتسم وهو يقول:

- وانا مالي يا عم .. انت اللي بخيل ومش عايز تظبطها.

نزلت من السيارة ونظرت حولي، كانت الساعة قد قاربت على منتصف الليل، والسيارات العابرة قليلة، قال لي عصام بعد لحظات :

- واضح أنها مش هتدور .. ياللا نركنها على جنب وناخد اخر مترو ... محطة المترو قدامنا أهه.

- طب اسبقني وانا هركنها واحصلك ..

- لا يا حبيبي عايز تزوغ، مراتك عايزة تشوفك يا جدع، تلت تيام غايب عن البيت عيب...

بالطبع لن أستطيع أن أقول له إن حمدي السيوطي أصبح يطاردني في كل جزء في الشقة. فأكدت له أنني سوف آتي خلفه. شاهدته وهو يأخذ طريقه لمحطة المترو. ركنت السيارة، وقبل أن أغلق أبوابها تأكدت أن مسدسي في مكانه. كان الجو به نسمة من الندى محببة تلطفه والسماء خالية من النجوم ونتف من السحب تتجمع فيها وتبدو أنها ستمطر، أخذت طريقي خلف عصام لمحطة المترو ، كان الهدوء مسيطرًا على كل شيء، الركاب قليلون في هذا الوقت من الليل. أين عصام؟

بغتةً شعرت بتلك الغصّة في حلقي عندما رأيته أمامي، يتحرك على رصيف المترو، إنه هو، حمدي السيوطي، مستحيل !

أمنع صرخةً تريد أن تخرج من جوفي، أشعر باحتراق داخلي، أتأمل خطواته المقتربة وأنا أتراجع للخلف...صوت سرينة المترو تعلن اقترابه تدويّ في أذني والصورة تهتز من حولي، أسمع صوت المترو يقترب من المحطة بسرعته، أشعر لوهلة أن هناك يدان تمسكان بي: إنه هو حمدي السيوطي. أصرخ وأنا أدفعه بسرعة ليقع على قضيب المترو، أسمع صرخة من حولي بعنف من سيدة...

أرجع بظهري للخلف الرؤية كلها ضبابية ... أغادر المحطة وأنا أجري، وأجرى وصرخة السيدة ما تزال تدويّ في أذني ...

وذهول يشملني بالكامل ... مَنْ هذا الذي هاجمني وحاول دفعي تحت عجلات المترو ... من هذا ؟

لم أعرف كم شارع قطعت وأنا أجري، وأخيرًا رحت ألتقط أنفاسي بصعوبة عندما أدركت أن لا أحد خلفي ...

لم أستطع أن أفهم ما حدث بالكامل ... ارتجف جسدي بعنف عندما وجدت هاتفي يرن ... أخرجته من جيبي بيدٍ مرتعشة، جاء صوتي مرتجفًا وأنا أرد على نرمين بأنّني في طريقي للعيادة ، وعليها أن تنتظرني بالأسفل .. جاءت نرمين كنجدة من السماء لتخرجني من هذه الهلاوس الغريبة لأعود طبيبها النفسي... وضعت يديّ في جيوبي ووقفت أنتظر سيارة أجرة تقلني لمكان نرمين، وبداخلي راح شعور بالارتياح ينمو ... دون أن أفهم لماذا ؟

ولكنه كان يتضخم بشدة .

***

(9)

الجريدة في يدي أفتح على الخبر أقرأه عدة مرات وأضع الجريدة أمامي غير مستوعب ما جرى.

الخبر ينقل انتحار شخص ... رمى نفسه أمام المترو، المنتحر لا أوراق بحوزته تدل عليه.

وما زالوا يبحثون عن شخصيته المجهولة وسبب انتحاره.

مكان الانتحار هو نفس المكان الذي دفعت فيه شبح حمدي السيوطي إلى قضبان المترو.

لم أكن أعرف أين الحقيقة فيما حدث، وأين الخيال ؟!!

موضوع نرمين أيضا أصابني بحالة من حيرة رهيبة، فما حدث كان آخر ما يمكن أن يصل عقلي لتصديقه ...

أخذتها أمس إلى الدكتور لأجراء تحاليل الحمل، ولكن الطبيب أكد أنّه لا داعي للتحاليل.

فأنها حامل في شهرها الثالث، لم أعرف وقتها ماذا عليّ أن أفعل؟، صمت، وأنا أوصلها إلى شقتها.

... طلبت مني الصعود، رفضت ولكنها أصرت ورأيت الدموع تترقرق في عينيها.

حاولت أن أجاريها في الأمر للنهاية؛ فكنت ما زلت مأخوذًا بحادثة المترو، لذا صعدت معها.

فاتسعت ابتسامتها وراحت تضحك في جذل، بينما أنا صامت معظم الوقت.

دخلتِ الشقة وهي تسحبني من يدي كطفل صغير ، قالت: أنها دقائق وستعود . رحت أتأمل الشقة...

تبدو بسيطةً في ديكورها، صورةٌ كبيرةٌ تتوسط الصالة لنرمين تقف وسط زملائها في العمل في حفلة ما.

وتبدو عليها السعادة ونظرات الجميع حولها نظرات حب

واضح أنها موفقة في عملها لأقصى درجة، وجدت قدمي تأخذني للتحرك، فتحت بلكونة الصالة...

كانت تطل على قطعة أرضٍ فراغٍ كبيرة ، رحتُ أتطلع للنجوم في السماء...

أحاول أن أكشف بعيني وخيالي ما وراءها ولكنني أفشل، فوجئت بيد نرمين تغمض عينيّ.

أمسكت يديها أبعدها عن عيني وأنا ألفّ بجسدي، رأيتها أمامي ترتدي قميص نوم شفافًا يبرز مفاتنها...

كانت جميلة بالفعل، جسدها يضوي في عينيّ فابتلع ريقي

أتماسك وأنا أدخل بها للداخل، تجلس بقربي على كنبة الصالون وتبدو كطفلة شقية...

يدها تعبث في شعري، أحاول أن أتكلم فتكتم شفتيَّ بيديها وكأنها تستمتع بصمتي.

كنت بداخلي أرتجف أريد أن أفر.

لا أعرف ما الذي يدفعني للجلوس والاستمرار، ما هذا الجحيم الذي أفتحه على نفسي وحياتي؟

يدها تفك أزرار قميصي، أجدني صامتًا لا أبعد يدها، تقترب بشفتيها وتنفخ أنفاسها في وجهي.

يستعر الجحيم بداخلي، لا أعرف متى ألقمت شفتاي شفتيها، ومتى؟

سحبتني إلى غرفة النوم ؟ ولا أدري كيف أصبحنا عاريين؟ وكيف أخذتني لتلك الحالة...

التي شعرت بعدها أن لا نساء على الأرض غيرها ؟

لم أدرك ما حدث بالضبط كنا محلقين في دنيا أخرى، أنفاسنا تتلاحق، جسدي وجسدها يلتهمان بعض.

لهاث محموم، لم أعرف لمتى حلقت بها ؟ ولكن عندما عدت للواقع...

كانت هي منهكة ومنتشية، وكنت أنا في حالة من اللاوعي، أي جنون حدث الآن ؟

كيف طاوعتها ؟

خيانة جديدة لهند !

لكن هل كان هناك خيانات من قبل ؟؟

وقفت ورحتُ أرتدي ملابسي بينما وقفت هي متنمرة تحاول أن تسحب ملابسي من يدي...

حاولتُ إقناعها أنّي يجب أن أنزل الآن، فهند تنتظرني، كشر وجهها عن تقطيبة حادة.

وأعطتني محاضرة طويلة على أنّي يجب أن أراعي مشاعرها كما أراعي مشاعر هند.

وأنها هي أيضا زوجتي...

وإذا لم أكن أصدق فها هي ورقة زواجنا العرفي... وضعت الورقة أمام عينيّ.

التبس الأمر بكامله عليّ...لم أعد أفهم ... زواج عرفي ... الورقة ...

إنه توقيعي بالفعل !

كيف حدث هذا ومتى ؟ مستحيل !

أيكون هذا انتقام السيوطي مني، أن يجعلني أفعل أشياء دون وعي، هل كان هذا ممكنا ؟

لا، هذه الورقة مزيفة ولكن كيف حصلت على توقيعي، لا أعرف متى تحديدًا غادرت الشقة؟

ولكن صوت نرمين زاعقًا كان يتردد على مسامعي: أنها لن تترك حقها فيّ ولا حق ابنها القادم مهما حصل ...

أرمي الجريدة بطول يدي على المكتب، أرن جرسًا بجواري، تمر هنيهة قبل أن تدخل ألفت.

أطلب منها كوبا من الشاي، تهزّ رأسها وتخرج وهي تقول: إن هناك حالتين في الانتظار.

أهزّ رأسي وأنا أقول لها أن تدخل أولهما بعد أن أحتسي الشاي...

حالتان، إنني الآن من يحتاج للعلاج، ما يحدث يجعل الحياة حولي ضبابية بل يجعل كلُّ شيء عبثيًا..

هناك حالة من عدم الفهم تسيطر عليّ، حالة من التبلد...

رنَّ هاتفي مرتين ألقيت نظرة ولم أرد ، إنها هند، ماذا أقول لها ؟! أأعترف لها...

بخيانتي التي لا أدرك...

كيف حدثت؟ أم أقول لها أنّي قتلت، قتلت أمس صديقي عندما رأيت فيه صورة أبيها.

ومن قبل قتلت أباها باشتراكها ودون معرفتها، ماذا أقول لها ؟!

لا شيء أستطيع أن أتحدث معها فيه الآن...للمرة الثالثة ارتفع رنين الهاتف، وجدت يدي...

أضغط زر استقبال المكالمة وأقول جملة واحدة وأغلق الخط :

"اخلص شغل وأكلمك "...

أرتفع رنين الهاتف للمرة الرابعة، وجدت نفسي أغلق التليفون... دخلت ألفت وضعتْ...

كوب الشاي أمامي.

فأمرتها أن تدخل أول حالة الآن...دخل الرجل، كان في الخمسين تقريبا ، يعاني...

كوابيس شديدة ليلًا ولا يعرف لها سببًا، يشعر أحيانًا كثيرةً بحالةٍ من الاكتئاب الحاد.

لم أستطع أن أسمع منه كثيرًا كتبت له مهدئات ودعوته لجلسة أخرى الأسبوع القادم.

مرت الحالة تلو الأخرى وأنا أحاول أن أتخلص منها قدر استطاعتي لا أبحث عن علاج الآن لأحد.

كانت ألفت تلاحظ توتري، ولكنها ربما أرجأت الأمر إلى أن هناك مشاكل عائلية...

حتى لو لم تفهم لا يهم ! لماذا أركز مع ألفت أكثر من اللازم ؟! هل أشك أنها تعرف شيئًا؟

القاتل بداخلي أيبحث عن جريمة جديدة ؟..

انتهى اليوم أخيرًا، أمرت ألفت بالانصراف، وقلت لها: أن العيادة غدًا إجازة، وجدت نفسي أخيرًا وحيدًا.

خففت الإضاءة حولي... شعرت أنّي بحاجة للنوم ، النعاس يداعبني دون سبب.

أخرجت التليفون، اتصلتُ بهند، كان غضبها واضحًا وتشكو إهمالي لها...

هذه الفترة

وإنها لا تفهم، قالت أنها : تنتظرني على العشاء، وأنها اتصلت بعصام ليأت هو الآخر...

لا أعرف هل حبس صوتي وأنا أغلق الخط، عصام !

وجدت نفسي أتساءل كيف ؟!

وهل كنت أطمع أن يكون المنتحر الذي نشر خبره هو

عصام، هل كان يريحني هذا المنطق ؟ ..

ألهذا الحد وصل تخوفي من عصام ؟ ولكن من ؟ من ذلك الشخص الذي دفعته تحت عجلات المترو ؟

حمدي السيوطي مات منذ زمن بعيد، هل عاد للحياة لأدفعه مرة أخرى؟

ليموت ؟ ..

أي عبث يحدث، إنّني لا أفهم أي شيء، وجدت نفسي أتصل على عصام فجاءني صوته...

مرحًا :

-أنا في البيت عندك أنت فين... كده تزوغ امبارح ... ماشي .

قلت له: إنني في الطريق. وأغلقت الخط، لا ، هذا يفوق احتمالي ، نزلت السلالم مسرعًا ، ولكني عندما هبطت تذكرت أنني لم أغلق باب العيادة، لا أغلقته، لا أتذكر ، وجدت نفسي أصعد مهرولًا، لأجد الباب مغلقًا فأعاود النزول بسرعة، كانت أنفاسي تتلاحق بشدة وأنا أدخل للسيارة وأدير محركها قبل أن أضغط على دواسة البنزين ليرتفع صرير عجلاتها وأنا أغادر مسرعًا، رحت أتطلع للشوارع والعربات التي تمرُّ بجواري بسرعة، لا أعرف ما الذي يدفعني لأزيد من سرعة السيارة وكأنّي على وشك منع جريمة أو ارتكاب جريمة ؟ وهل لم أرتكب جريمةٍ للآن! فجأةً وجدت صورته مرةً أخرى تنعكس في مرآة

السيارة، اللعنة ألا يكف عن ألاعيبه هذه؟ وجدت نفسي أضغط الدواسة أكثر وأكثر . لا أعرف متى ظهرت هذه الصغيرة التي تعبر الطريق ، ولكني ضغطت دواسة فرامل السيارة بعنف وأنا أدير المقود لأقصى درجة، ولم أنتبه لوهلة للسيارة التي تأتي في المقابل، لأسمع فجأةً دويّ الاصطدام الرهيب، ثم راحت الصور تتابع أمامي عينيّ في ذهول قبل أن يختفي كل شيء من أمامي فجأةً...

***

(10)

يقفون فوق رأسي، أسمع همسهم، كلامهم لا أستطيع تفسيره ، أدرك جيدًا من هم من أصواتهم.

ولكني لا أستطيع أن أصرخ، أن يكفوا عن الهمس، صوت هند مميز لي...

وهي تصف حالتي الآن، ويأتيني صوت عصام شارحًا شيئًا غير مفهوم، بينما أصواتٌ أخرى...

تتردد في أذنيّ لا أستطيع أن أفصل بينهم، زحمة من الأصوات داخل عقلي.

أردت أن أقف، لا يطاوعني جسدي، أين أنا الآن ؟

آخر ما أتذكره هو ضوءٌ شديدٌ يضرب في عينيّ، وطفلةٌ تحاول أن تعبر الطريق ، ثم...

يختفي كل شيء، من أنا ؟ ...

لا أستطيع أن أقول إنني أدرك حقًا الآن من أنا، شبورة من الضباب تلف عقلي.

ما الذي يحدث بالضبط هل مت ؟ وهل تلك الأصوات تأتي من داخلي الآن ، هل ستأتي ملائكة الحساب الآن...

ليسألوا عن أعمالي ؟...

كلا ما أسمعه من أصوات يقول أنّي على قيد الحياة، ولكن أين أنا، لا أستطيع أن أفتح عينيّ.

خيال شبحٍ أراه أمامي الآن يقف مبتسمًا وكأنّه كان يعرف النهاية، إنّه حمدي السيوطي.

ألمح تلك النظرة المتنمرة في عينيه، أحاول أن أهرب بعينيّ بعيدًا عنه.

ولكني بالفعل مغمضٌ العينين، يبدأ الاقتراب مني، أشيح بوجهي في خيالي، ولكنني...

أينما وليت وجهي أراه أمامي يقترب، أشعر بملمس يده على جسدي، أحاول أن أطرد يده ولا أستطيع...

صوته يصل إليّ غير واضح أيضًا، ولكن من الأكيد أنّه يتوعدني.

أريد أن أصرخ لأطرده من خيالي ، ولكن الصرخة تقف في حلقي ولا تتجاوز شفتيّ :

عصام، هند، نرمين، ألفت، عم توفيق، أم زوجتي، كلهم يلتفون الآن حول حمدي السيوطي أمامي...

يملهم شيئا ما، وهم يهزّون رءوسهم في سعادة، بالتأكيد أننّي تحت تأثير مخدر...

أشعر بالتنميل الكامل لجسدي، أشعر للأسف بأنفاسهم الحارة في خيالي ، أؤكد لنفسي:

أن هذه هلاوس، وأننّي بالتأكيد تحت تأثير مخدر ما، أعضائي أين هي ؟ لا أرى نفسي...

سوى خيال، محض مجرد، صورةٌ ضبابية لخيال ولكن بعيدا عن الواقع أنا...

بلا أطراف بلا جسد، وكأنّي تحولت إلى شبح، خيال فقط ، يتكالبون حولي ، أحاول الفرار.

أفشل.. يحيطون بي في دائرة ، نرمين تصرخ: أنها لن تتخلص من الجنين ...

أرى بطن نرمين ينتفخ أمامي، أرى حمدي السيوطي يقترب من بطنها يشقه يخرج جنيًا مشوهًا.

ويدفعه في يدي ، أصرخ، وأصرخ... فتقترب هند لتضع شيئا في فمي ، أشعر...

بمرارة ما دفعته في فمي، صوت عمها متهما أياي: بأنّي لص وقاتل يصلني عاليًا.

أصرخ نافيًا، صوت ألفت تؤكد الجريمة عليّ، وأنّي من قمت بالقتل وأنها ساعدتني دون أن تدري...

ولم تكتشف هذا إلاّ في وقت متأخر، صوت عصام مهددًا أنّه يريد العيادة وإلا فضحني...

صورة للمترو يقبل ناحيتي بعنف، وأنا أجري لأدفع حمدي السيوطي...

ليسقط على القضبان، تمرُّ وهلة أرى حمدي السيوطي يقف على الرصيف المقابل، جسده سليم...

بينما عيناه جاحظتان بشدة ... أحاول أن أطرد كل الخيالات المجنونة جانبا، أؤكد لنفسي...

أنّي في حلم وسوف أفيق منه، عصام لن يأخذ العيادة، هند ستعود لحضني.

حمدي السيوطي سيرجع لقبره بينما يظل عمها وأمها في الإسكندرية، ألفت وعصام...

هما اللذان ينغصان عليّ الآن الصورة، سوف أعرف كيف أتخلص منهما ، سأعود أقوى مما كنت...

سأعود الطبيب الناجح الذي يتردد على عيادته المشاهير ، سوف أفتتح المستشفى الجديد...

ستُعالج عندي الممثلة المشهورة التي تشعر بعقدة الاضطهاد، وسوف أعطي لها العلاج...

بينما أمارس معها الجنس، سيخطب وديّ المشاهير ممن لديهم مشاكل نفسية...

ولا يريدون لأحدٍ أن يعرف، سأفتتح عنبرا سريًّا في المستشفى للحالات الخاصة، سأعود...

كما كنت، سأتخلص من نرمين وألفت وعصام، لن يكون كل ما حدث حقيقة. نرمين...

ستعود مريضة مثالية تأتي لتحكي حواديتها المرتبة، بينما سيعود عصام صديقي المفضل...

كل شيء سوف يتحسن، لن يمرَّ وقتٌ طويل حتى أعود كما كنت وأفضل مما كنت.

صوت غريب يقتحم عقلي، يسلبني أرادتي، أشعر بهذا الصوت جيدًا وأدرك صاحبه...

ولكني أهرب منه، ليس حقيقيًا ... نعم، بالفعل أنا من قتل حماي العزيز ، ولكن هو من...

قتلني... هو من احتقرني دون سبب، وهل الاحتقار مبرر للقتل ؟! من أنت كي تتساءل ؟!

دعني ، فأنّني بحاجة للفهم، بحاجة للمعرفة، لا شيء حقيقي... كله وهم ، سأفيق الآن...

أشعر بهذا، أشعر أنني سأعود، سأعود ... بدأت الخيالات تختفي من أمامي ، وبدأت...

أشعر بجسدي، أسمع ضربات قلبي ولا أعرف كيف ... أشعر بالهواء يتخلل رئتيّ ، لن أصرخ...

... فلا فائدة ، الصراخ لا يتجاوز شفتيّ ...

فجأة أري يوم فرحي، أرى هند بجانبي ضاحكة، بينما أمها وسط المعازيم، أرى...

نظرة عمها لي وهو يهنئني بالزواج، وكأنّه يقول: ستقع يوما ما ...

أشعر بجسد هند بين يديّ، ونحن نصعد السلم للشقة، أصرت أن أحملها.

هل كنت أعدُّ السلالم وأنا أحمل زوجتي لباب الشقة؟ نعم، كنت أعدُّ السلالم ، أي عبث هذا ؟ ...

الأضواء الخافتة داخل الشقة، الهدوء الجميل وأنا وهي وحدنا ، هل هذه أول ليلة ظهر لي فيها خيال حمدي السيوطي ؟

كلا ، لم يكن قد قرر بعد أن ينغص حياتي، فرحة الزفاف

والصباحية ، وجه هند المتورد، عيناها الصارختان بالفرح، خداها المتوردان...

الخفر الذي يبدو على ملامحها، أي جمال هذا ؟!

الصور تتلاحق باستغراب ودون ترتيب، حمدي السيوطي مقيد في سريره في المستشفى الخاص...

نظرة عينيه الذابلتين، شحوب وجهه الواضح، الحقنة في يدي، يعرف أنها النهاية.

يريد أن يصرخ فلا يستطيع، ألفت تقف بجانبي، أشير لها أن تكشف ذراعه ...

أعطيه الحقنة وأنا مبتسم، بينما نظرات عينيه تقتحمني، تكاد تسلبني أرادتي...

أغادر الغرفة مع التأكيد على ألفت بإعطائه الحقن في ميعادها، تهزّ رأسها وتبتسم، ألقي نظرة أخيرة عليه...

وأنا أغادر ، ألمح شفتيه تتحركان وصوته لا يخرج، أحاول أن أقرأ ما يقوله.

ولكنني أفشل، أغلق باب الحجرة خلفي بينما صرخة عجيبة تهزّ جسدي، طفلةٌ صغيرةٌ...

تعبر الطريق، الضوء يقتحم عينيّ ، يرتجف جسدي ... أفيق أخيرًا ، أشعر بجسدي ، أفتح عينيّ...

أتأمل الحجرة أنني في مستشفى ما، إذًا ما زلت على قيد الحياة، من أتى بي لهنا؟

أتذكر صرخة الطفلة وأصوات أناس تقترب من سيارتي وأحدهم يقول: " لسه فيه الروح حد يتصل بالإسعاف "...

العربة الأخرى، هل مات أحد؟ أسمع صوتًا آخر :... العربية التانية مظنش حد سليم...

ست وبنتها بينهم ماتوا ... حد يطلب الإسعاف ... حد يطلب الإسعاف.

-اللعنة، سيدة وابنتها، جريمة جديدة تضاف إلى جرائمي، لا أتذكر بعدها أي شيء.

أتنفس بعمق، وأحاول أن أطرد كل هذا خارج عقلي، صوت خطوات يقترب من باب غرفتي...

ممرضة تدخل تقيس النبض، وتدفع بحقنةٍ ما في وريدي ... يتثاقل رأسي مرة أخرى...

بعد وهلة، وأشعر بالنعاس .. أريد أن أنام .. أنام ..

وجدت عقلي يرفض هذا عاكسًا الوضع بأنّه يجب أن أفيق والآن وإلا انتهيت ...وللأبد ..

ولكن النعاس كان أقوى مني، أشعر به الآن يقتحمني، يجبرني أن استسلم، وجدت نفسي مرة أخرى هناك، رصيف المترو، يدي وهي تدفع السيوطي للقضبان وهو على الناحية الأخرى يضحك، أجري على الرصيف، أجده يعبر شريط المترو ويقفز ليكون أمامي، أجري، لا أعرف كم من الوقت استمريت في الجري؟ ولكنني أخيرا وجدت نفسي هناك في شقة نرمين، تداعب شعري وهي تسقيني كوب العصير الذي أعدته، أجدني أقبلها، أراني كشخصٍ آخر وهي تتخلص من ملابسها، لنغوص معا في الحب، أرى فجأةً عصام يقف مبتسمًا على باب غرفة النوم، بينما نرمين عاريةً بين يديّ، أدفع جسد نرمين بعيدًا عني وأقذف نفسي في وجه عصام، ما الذي أتى به لهنا؟ يتراجع إلى الصالة، يشير للنجوم وللشرفة قبل أن يقفز منها، أجري للشرفة أتطلع لأسفل كان هناك جسدٌ ملقىً والدماء حوله من كل جانب، أدقق النظر أكثر، وأكثر، أصرخ وأنا أستوضح الجسد، إنه لنرمين، أرتدّ برأسي للخلف، أدخل للصالة أجد عصام جالسًا يضع قدمًا على قدم وأمامه زجاجة من الخمر، يدعوني أن أشرب، أدفع بيدي الزجاجة وأغادر الشقة مسرعًا، أكتشف أنّي أجري عاريًا على السلالم بينما شفتاي تردّدان رقم كل سلمة أهبطها ... أخيرًا أشعر بنفسي في وسط الشارع الخالي من البشر، أقف عاريًا تمامًا، أحدق في الطريق، بينما هناك على بعد خطوات جثة نرمين غارقةً في دمائها ... أصرخ بعنف ... يهتز جسدي بالكامل ويزداد ارتعاشًا ...

اسمع صوت أحدهم يقول : الحمد لله بدأ يفوق ...

بينا راحت الصور تهرب من ذهني بعيدًا، وأمام عينيّ أجد ستائر بيضاء وضوء يتخلل الغرفة ...

***

(11)

تدفع الممرضة كرسيّ المتحرك عبر ممر المستشفى، يساعدها شاب أن تهبط بالكرسي عدة سلالم، تشكره وهي تدفعني للأمام تضعني أمام مائدة وتنصرف، أحمل بين يديّ عدة أوراق، أتأمل فيها لثوان، تبدو الدهشة على عينيّ، ولكنني أطرد الخواطر جانبًا، الشمس تحتل مكانها في السماء، الجو دافئ، أتأمل المرضى حولي، والدكاترة وهم يقطعون الممرات المؤدية للداخل أفقت من عدة ليال كنت أعجز عن الحركة، أشعر بضعف عام، قال الأطباء: إنني سوف أتحسن مع الوقت ...

رأيت عصام مرتين خلال هذه الفترة، بينما هند أراها تقريبًا كل يوم، تأتي لدقائق قليلة تطمئن على حالتي وتنصرف ...

أشعر بطاقةٍ سلبيةٍ أمام العالم، أشعر بالضعف، العقاب الذي لم أنتظره جاء ليهدني...

أحاول أن أظهر لنفسي أن كل شيء على ما يرام وأنها أيام قليلةٌ ستنقضي، وسأعود أفضل مما كنت، الهلاوس تطاردني

كثيرًا في أشكال متعددة، ولكنني اعتدت عليها، كدت أدمنها للأسف، وربما أصبحت مبررًا لي أنّ الحياة لم تعد كما كانت، هناك أخطاء كثيرة ارتكبتها، ربما لم أكن أقصدها، ولكن هذا ما حدث وما مررت به للآن يجعلني أشك في كل شيء حولي، يزداد شكي في عصام وهند، رأيتهما منذ أيام يتبادلان الضحكات، لم يشعرا أنني أراقبهما، هل خيّل لي أنّه وضع يده على كتفها، وتأبطت ذراعه بعدها والابتسامة على محياها؟ لا أعرف... أصبحت أخلط كثيرًا الواقع بالخيال، اتصلت بنرمين عدة مرات ولكن تليفونها مغلق، نرمين تلك الجريمة التي أستحق بسببها العقاب فعلًا ، كيف سمحت لنفسي بهذا ؟

بدأت في رسم مخطط جديد للحياة، وبدأت أشعر برغم كلّ ما أمر به بالاستقرار النفسي، أنني أستحق العقاب، قررت أن أدون ما مرّ بي في هذه الأوراق ربما استفدت بها بعد ذلك في علاج حالتي، ولكنني ظللت لأيامٍ يديّ متيبسةٌ على القلم لا أستطيع أن أبوح بكل شيء، البوح فن ملعون ، لا يقدر عليه إلاّ من يحمل قلبه بين ذراعيه، يرى القلب ينتفض بشدة فيكتب.

رأيته يقترب مني بهدوء عجيب، كان عجوزًا تخطى منتصف الستين تقريبًا، متثاقلٌ في خطواته ولكنه يصمم على الاقتراب أشحت بوجهي بعيدًا، وعندما أعدت النظر وجدته أمامي مباشرةً لم أعرف كيف خطا هذه الأمتار التي بدت لي بعيدة بعض الشيء في ثوانٍ، تأمل وجهي وتأملت عينية الغائرتين في

وجهه ... تلعثم لسانه وهو يردد كلمات لم أفهمها في البداية ولكنه أستند بيده على كرسي وهو يقول:

-انا شفتك ... وعارف انك بتراقبهم ... هما من زمان مع بعض ... بس انت اللي جديد هنا ...

لم أنطق بحرف وهو يستطرد قائلا:

-كتير قوي بيحسدوهم على علاقتهم ببعض ...

لم أعرف من الذي يقصدهم بالحديث وشككت أن الرجل ربما مصاب بالزهايمر ولكنني وجدت نفسي أتساءل:

-مين اللي مع بعض ومين اللي بيحسدوهم ؟

راح ينظر حوله في خوف، وعندما عاد بعينيه اتجاهي شاهدت الرعب الذي ينطلق منهما وهو يقول:

-عصام وهند ... متعملش عبيط ...انا شايفك بتراقبهم وبتكتب.

أصابني الذهول لثوانٍ من هذا الرجل؟! وكيف يعرف عصام وهند ؟!

نظرة الدهشة في عيني، جعلته يفرُّ من أمامي، حاولت أن أتعلق بيده لكنه دفع يدي... وهو يهرب بعيدًا عني قائلًا:

-اوعى يخدوا بالهم منك ...

حاولت أن ألحق به ولكن لم أجد القوة الكافية لأدفع الكرسي المتحرك، من هذا الرجل ؟ وما الذي قاله لي ؟!!...

بعدما عدت أتأمل المرضى من حولي كان قد اختفى نهائيًا وكأنّه لم يكن له وجود، ربما هي هلاوس جديدة، لا ،عكازه يترك حفرة على الأرض بجوار الكرسي، إنه كان هنا. ولكن من أين أتى وكيف يعرفني وكيف يعرف عصام وهند ؟ ينقصني هذا؟!!

بعد مدة حاولت أن أتناسى الأمر، وعدت أتأمل الورق الذي يستقر على حجري، لم أستطع أن أخط كلمة جديدة في الورق، مرت فترة وجدت الممرضة عائدةً، حاولت أن أشرح لها أنني أحتاج لوقت آخر في الحديقة، ولكنها قالت: إن هذا يكفي، تعليمات الدكتور.

أخذت تدفعني من جديدة في اتجاه السلالم، ساعدها نفس الشاب مرة أخرى في حملي هذه الدرجات، ثم ابتسمت له وهي تدفعني للأمام، هل بينها وبين هذا الشاب علاقة؟ لم أرد أن أشغل رأسي مرة أخرى بأشياء دون أهمية، من الجلي أن كل شيء أصبح غير واضح وغير مفهوم لي بصورة كافية ... كل شيء!.

الظريف أن هند أتت في المساء، رجوتها أن تظل بجواري، ولكنها قررت أنني أحتاج للراحة والنوم، وأنها يجب أن تذهب.

هند أصبحت تغيب عن عيني كثيرًا هذه الأيام، حاولت أن أنهض عن السرير، ولكنني وجدت أنّي ما زلت لا أستطيع

بالشكل الكافي ... ليكن، هي مجرد أيام وسوف أتعافى، مجرد أيام قليلة، وسأعود لأخرج لهم مرة أخرى، سيموت عصام هذه المرة، لن أدعه يعبث بحياتي مرة أخرى، لم أحاول أن أسأل عن مصير الأمّ وابنتها اللتين كانا معي في الحادثة، ولكن الغريب أن أحدًا لم يذكر سيرتهما للآن ... هذا أيضا أثار حيرتي، من الطبيعي أن يزورني ضابط مباحث ليعرف أقوالي على الأقل، وهذا أيضا لم يحدث ؟ ...

كل شيء يتسم بالغرابة، حتى أنا نفسي أصبحت أشعر بغرابتي، نحيت كل كتب الطبّ النفسي جانبًا، وقست حالتي كمريض، لا أستطيع أن أحدد بالضبط ما الذي أشكو منه، أو ربما أعرف الآن ولكني أرفض التصديق ... الأوهام الكثيرة التي أصبحت تحدث حولي جعلتني إنسانًا متقلب المزاج، أخرج من حالة لأخرى، لا أصل إلى بر حقيقي، الأرض أسفل قدمي تتلاشى، يجب أن أكون واثقًا بنفسي أكثر من هذا، يجب أن أعطي لنفسي فرصة أخرى، فرصة للنجاة ...

راحت الأيام تتوالى تباعًا في روتين ممل، كنت بالفعل قد بدأت في التحسن، أصبحت أسير حاليًا على عكاز، وأستطيع أن أذهب للحمام وحدي، أشعر بطاقة أكثر للحياة،أشتاق للعيادة، أشتاق لهند بشدة برغم أنها تتردد عليّ كل فترة، ولكني أشتاق لأشعر بملمس جسدها بجواري على السرير في بيتنا، تعود المرضى على شكلي وأنا أتحرك بالعكاز بينهم لأخذ مكاني في

الحديقة. تحاليل وأشعة كلَّ فترة. عصام يختفي ويظهر وهو يحمل نفس الابتسامة الكئيبة. بحثت عن الرجل العجوز كثيرًا ولكني لم أعثر له على أثر ، خفت أن أسأل عنه حتى لا يتهمني أحد بالهلاوس وأنّه غير حقيقي، عندما أصدم بعدم وجوده كشخص حيّ ، يتحرك بيننا ...

قلتِ الهلاوس إلى حد كبير ، حمدي السيوطي الذي اعتدت وجوده في كوابيسي يختفي لأيام كثيرة ويعود على شكل ومضة ويختفي، كان هذا يريحني بالفعل، ربما صعبت عليه. فقرر أن يذهب للأبد. ولكنه يذكرني بنفسه كل حين...

لا أعرف كيف أصبحت أجيد الكتابة بصورة تذهلني أحيانًا في اختيار العبارات؟ الكثير من الأوراق كتبتها، والكثير من الحالات التي كانت تمرُّ عليّ وجدت حلولًا لعلاجها بطريقة أسهل... البوح شيءٌ مدهش.

لا أدرك لأيّ مدى حقيقة ما أفعله، ضحكت وأنا أتصور أنني ربما في يوم ما أطرح نفسي كمؤلف، وأرى نفسي أتسلم جائزة كبرى، والحضور يصفقون في حماس منقطع النظير...

ضحكت من هذا التصور، مستحيل، سوف أتخلص من هذه الأوراق عند خروجي من هنا، إنني أخفيها عن أعين الجميع تقريبًا، لا أريد أن أكشف نفسي أكثر من هذا....

كنت قد جلست في الحديقة، ورحت أعيد صياغة بعض الجمل وأهذبها، وعندئذٍ لمحته، إنه هو، العجوز، يقف مستندًا على شجرة ويشعل سيجارة ويبتسم، كنت أستطيع الحركة أكثر....فجريت باتجاهه وأنا أقفز وأستند على عكازي، لمحني أقترب، فوجدته يهرول مثلي بعيدًا عني، ولكنني رحت أقترب وأقترب منه... وأخيرا وجد يدي تمسك بكتفه، أدار وجهه لي، فرأيت تلك النظرة في عينيه، والتي راحت تتخلل كياني كله، وشعرت فجأةً وكأن شحنةً كهربائيةً تضرب عقلي، وأنا أرتعش بشدة، بينما نظراته لي تقتحمني... حاولت أن أصرخ فيه وأنا

أحاول أن أتماسك ألا أسقط، ولكن الصرخة لم تخرج... بينما ابتسامته تتسع...ورعشة جسدي تتزايد ... وعقلي يكاد يفرُّ من مكانه وأنا أغمض عينيّ...فتحت عينيّ عندما خف الألم قليلاً فلم أجده أمامي...ولكني فوجئت أنّي بدأت أفهم حينما رأيته يغادر باب المستشفى وهو يشير لي بيده ... والألم يزداد بداخلي بعنف مرة أخرى، وقتها وجدت نفسي أصرخ بهستريا... قبل أن أسقط غارقًا في غيبوبة.

***

الخاتمة

خاتمة 1

كنت أعود من حالة الحلم واللا حلم، أشعر بأنّي بدأت أفيق ، وبرغم اهتزاز الصورة أمام عينيّ، شعرت أنّي أرى كلّ شيءٍ بوضوح، رحت أطرد حالة اللاوعي، أفقت بالفعل ، سأقف الآن ، أحاول، أشعر بجسدي ضعيفًا منهكًا ...

شلتني المفاجأة أمس، لم أكن أتصور ما حدث، بحثت عن مكان الأوراق في الغرفة، وجدتها أخيرًا...

رحت أتطلع لما كتبته في السابق بدهشة، أيُّ وهم هذا الذي كنت أعيش فيه؟، وأيُّ خيال مجنون تركت نفسي له؟! ..

كيف صرت إلى هذه الحالة؟ لا يهم !

ذهبت للحمام، غسلت وجهي، ورجعت، أمسكت القلم وبدأت أسطر كلَّ شيء ومنذ البداية، وشعرت أنّي أكتب عن شخص آخر لا أعرفه، ولكني قررت أن أكتب، فكلُّ دقيقة الآن لها حساب...

لا أعرف كم من الوقت مرّ وأنا منكفئ على أوراقي... شعرت بضوء الصباح يحاول أن يتخلل الستائر، أحسست بالتعب.. رجعت إلى السرير، وحاولت أن أستريح، وأنا أخفي الأوراق أسفل المرتبة...

لا أعرف ممَن تحديدًا أخفيها؟، ولكنّ شعورًا قويًا جعلني أفعل ذلك، لم أحاول أن أسأل من جلبها بعد سقوطي أمس لهنا...

لا أدرك هل نمت أم لا؟، ولكنني وجدت الممرضة تدفع الباب لتدخ ، راحت تقيس لي الضغط ، ووضعت حبة ما تحت لساني، وقالت: أنها مستعدة لتنزل بي للحديقة للاستمتاع بجو الصباح الدافئ، قلت لها: أننّي سأنزل وحدي فباستطاعتي المشي حاليا ... قمت وأخذت العكاز تحت إبطي واتجهت للباب، وجدتها خلفي تدفع في يديّ الأوراق، إذًا هي من جلبتها أمس وهي أيضًا ربما مشتركة معي في إخفائها، شكرتها وأنا آخذ طريقي عبر ممر المستشفى، ودوسيه الأوراق بين يديّ، الهدوء في هذا الساعة يسيطر على الممرات، القليل من الأطباء يقطعون الطرقات، رأيته يقف أمام حجرته يحتسي شاي الصباح ، ابتسمت ، إذًا بالفعل حقيقة !

سألني وأنا أمر من جانبه عن حالي اليوم، فأجبته أننّي بخير... لا يختلف كثيرًا عما تصورته وكتبته ... بل يشبهه بشكل مدهش ...

أخذت مكاني تحت الشجرة ورحت أتطلع للعصافير التي تمر فوقي، وراحت عيناي تبحثان عن شيء لأدركه، شيء ربما أنتظره ... ليؤكد لي أنّي مجنون...من العجيب أن تنتظر شيئًا لتثبت لنفسك أنك غير طبيعي... الأوراق والقلم، وبعض السطور التي تمرّ أمام عينيّ باستمرار، وبعض الجمل التي تلاحقني وتهرب...

لا حقيقة مطلقة، ولا خوف مطلق.. نحن من يزرع الحقيقة بداخلنا أو الخوف وكان عليّ أن اختار ... الحقيقة أو الهروب منها... وكنت قد قررت المواجهة، سوف أواجه حقيقتي مهما كانت النتيجة... أتطلع لبوابة المستشفى وكأنها طريق النجاة.

ألمح عربة فارهة تدخل المستشفى تنزل منها سيدة ملامحها تبدو لي معروفة، أجدها تنظر ناحيتي وتبتسم، أشيح بوجهي بعيدا بلا سبب، وعندما أعود لأنظر باتجاهها مرةً أخرى أجدها تقترب مني ... شيء بداخلي يقول إنني أعرفها جيدًا ... مستحيل ! إنها تشبهها كثيرًا ... لم تمرّ هنيهة حتى وجدتها أمامي ... جلستْ .. أردت أن أزعق فيها من سمح لها بالجلوس، أخرجتْ علبة سجائرها وأشعلت سيجارة، وقالت:

-أولع لك واحدة ؟

هززتُ رأسي، فأشعلتها، ووضعتها في فمي، بدوتُ أمامها كالطفل الصغير، لا أعرف ما الذي يجب أن أفعله، تحدثتْ كثيرًا دون أن يكون لدي دافع للرد، ولكن كلما تكلمت أجدني

أحضن دوسيه الأوراق بشدة... جاءت الممرضة بعد قليل بكوبين من العصير ووضعتهما أمامنا، وسلمتْ على محدثتي كأنهما يعرفان بعض منذ زمن، وقالت لها الممرضة: إننّي اليوم أحسن حالًا... ثم انسحبت..

تناولتْ كوب العصير وراحتْ تسقيني وأنا أمامها لا أجد رد الفعل المناسب... فرحتُ ارتشف العصير، وبعدها أخرجتْ منديلًا ومسحتْ فمي... أردت القيام ... فوجدتها تعاونني على الوقوف ... وتسير بجانبي ...

أخذنا الطريق إلى غرفتي، كانت تعرف الطرقات جيدًا، وكنت أنا أحاول أن أصرخ بعنف، اذهبي، لا أريدك. ولكن الكلام لم يغادر شفتيّ وظل حبيسا في حلقي، دخلنا للغرفة، ذهبت للحمام وتركتْ بابه مفتوحا وقفتِ أمام المرآة، وراحتْ تعدل من تسريحة شعرها، بينما أنا متردد بيني وبين نفسي أن أنطق بحرف... ولكن بعد فترة وجدت الكلمة تهرب من شفتي:

-نرمين ؟

سمعتها وهي تغادر الحمام وتجاوبني :

-نعم يا حبيبي ...

كانت هي ، هي بالفعل، أي لعنة هذه ؟

كيف صارت بهذا الشكل، طلبت منها مرآة ، أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها، أخذتها بضعف، وتطلعتُ للمرآة لثوان

وجحظت عيناي بشدة ، فالذي كانت تنعكس صورته في المرآة ، كان آخر شخص أظن أنه موجود ... كانت الصورة التي تعكسها المرآة على أنها صورتي، له. إنه هو... حمدي السيوطي !

إنه أنا !!!!

وأدركت الآن لماذا لم أستطيع أن أقول من البداية أنها نرمين، فتجعيد وجهها والشيب الذي بدا في شعرها يجعلها أكبر من نرمين التي كنت أعرفها بعشرات السنين ...

ربتت على يديّ وهي تودعني وتضع قبلة على خدي قائلة: أنها ستزورني غدًا...

هززتُ رأسي لها، ذهبتُ للحمام بعدها، ورحتُ أتطلع لوجه حمدي السيوطي في المرآة، رجعتُ للسرير تطلعت لورقة الحالة المعلقة عليه والاسم ... ضحكت بشدة وجنون إذن أنا هو... بشحمه ولحمه، أنا الشيخ الطاعن في السن ... المجنون الذي يعالج في مصحةٍ خاصة... أنا السبب في كل هذا مستحيل !

مرت ساعات وأنا غير مصدق وأحاول أن أستوعب ما يحدث لي...

باب الغرفة يفتح، دخلت هند ويدها بيد عصام وكانا يبتسمان لي ، أخرجتْ هند حقنة وراحت تحقنني ووجها يشرق، بينما عصام يقف وعلى شفتيه نظرة مطمئنة ...

وجدت نفسي أتكلم متسائلاً :

- أنتوا متجوزين من زمان ؟

ابتسم عصام قائلاً :

-انت رجعت تنسى تاني يا عم حمدي ..

-لا أبدا .. معلش انا آسف ..

قال عصام وهو يواصل الابتسام :

-آسف ايه يا راجل يا طيب ... اذا كانت حالتك هي سبب معرفتنا ببعض ...

-صحيح ؟

-مش قولت شكلك رجعت تنسى ... ايوه لما جيت انت اول مرة ... بس عايزك تبارك لهند بقى ولي العهد هيشرف قريب وتباركي لي طبعا مش انا ابوه ....

كلام كثير قاله عصام لم يصلني، والصور تترى أمامي بطريقة مفزعة، نعم، أنا حمدي السيوطي ولن تتزوجيه، أنا من يقرر هنا، إنه شاب مستهتر واضح من شكله، يكفيني أنّي فقدت ابني ولن أسمح لك ... صورتها وهي تبكي وتغلق حجرتها، صورتها وهي ملقاة على السرير والدماء تغرق كلَّ شيء حولها....

وحالة الجنون التي أصابتني ودفعت نرمين لتأتي بي لهنا، وكيف كنت أجلس في الحديقة بينما عصام يجلس أمامي يباشر حالتي وكانت هند تدخل، وأنا أنظر إليها، وكيف هو وقف واتجه

إليها في بساطة وراحا يتكلمان ...وكيف راح عقلي ينسج خطة مجنونة حولهما؟ وكيف تخيلت هند زوجتي الآن؟ فهمت لماذا كان العجوز المجنون يقول: أنه يعرف أنني أراقبهما ... فقد كان هذا العجوز هو أنا !!

قطع تيار ذكرياتي صوت عصام وهو يقول :

-إيه يا عم حمدي ما قولتش لو جت بنت نسميها إيه ؟ .. ولو جه واد ...

-بنت ولد ؟

قالت هند وهي تضحك :

-إيوة طبعا .. ولا عاوزني اجيب شايب ؟

-سميها نرمين على اسم مراتي لو بنت .. لكن لو واد اوعوا تسموه حمدي أوعوا ..

ابتسمت هند نصف ابتسامة وربتت على كتفي ودعتني لأستريح، وغادرا الغرفة وهما يشيران لي بالتحية، انغلق الباب خلفهما ولكنني لمحتها تعبر الممر قبل أن يغلقا الباب إنها ألفت الممرضة التي تباشر حالتي ...

وبدأت الصورة تطاردني بشدة وتتوقف ثم تعود للمطاردة ولكنني فجأةً وأمامي على الباب رأيته يستند بظهره ضاحكًا في شماتة ويفرك يديه في جذل... ونضرة الشباب تنطلق من

وجهه، إنه أنا... وجدت يدي تلتقط الأوراق ... ورحتُ أكتب وضحكتي تتصاعد بشدة...

***

خاتمة 2

بدأت أمشي بصورة جيدة منذ أن رأيت حمدي السيوطي في شكل عجوز عجيب وكأنّه راح يداعبني كشبح وأنا أصرّ أن أخرج من هنا في أسرع وقت ممكن ... اليوم كتبوا لي خروجًا... اتصلت بهند لتأتي لتأخذني قالت: إننا يجب أن نمرّ على القسم لاستعصام المحضر ... فهمت منها أننّي الوحيد الذي تعرض لإصابات خطيرة، بينما الأم وابنتها فقط فقدا الوعي لمدة بسيطة وعادا لبيتهما وأنها تكفلت طوال فترة مرضي بإصلاح السيارة...

سلمت على الطبيب الذي تذكرت أننّي رأيته من قبل في الجامعة وذكرني بنفسه... لم أحاول أن أسأل هند عن عصام ...

ذهبنا للقسم واستكملنا المحضر وانتهت المشكلة، وكنت في حالة معنوية مرتفعة، اتصلت بالمقاول أكدّ لي أن العمل على

وشك الانتهاء وأنّه يريد دفعة جديدة...اللعنة على هؤلاء المقاولين...

ليلاً أصررت على الخروج رغم كلِّ تحذيرات هند لي ... ركبت سيارتي ورحت أجوب الطرقات بهدوء، لا أريد أن أفكر في السيوطي أو غيره، كنت أريد أن أفكر في شيء واحد الآن عصام ... تليفونه لا يرد ولكنني أعرف مكانه، ركنت السيارة أمام البار ودخلت، تطلعت للبار كان عصام يجلس على مائدة وحده وأمامه زجاجة من الخمر ، هش لي وأنا أدخل، ولكنني أشرت له أنّني سوف أنتظره بالخارج ، أحاول الاتصال بنرمين لا ترد ، لا أفهم لماذا ؟

أخيرا خرج عصام، أخبرته أنّي أريده الآن معي لأن معي مبلغ كبير من المال ويجب أن أقابل المقاول وأخاف في حالتي تلك أن يحدث لي أي شيء، فرح عندما أخبرته أنّني سوف أترك له العيادة، كان منتشيًا وسكرانًا وفرحًا بالأخبار الجديدة، ولم يهتم عندما أخبرته أننا سنقابل المقاول خارج القاهرة في عملية سكنية يقوم بها، رحنا نقطع طريق إسكندرية الصحراوي، وكانت النجوم هاربة من السماء والليل حالك، أوقفت السيارة في منطقة خالية من الصحراء، أراد أن يفهم عصام ماذا يحدث؟ رجوته بالنزول فالمشروع على بعد دقيقتين من هنا ولا أريد أن أدخل بالسيارة، مشينا لدقيقة في الرمال ولم يفهم هو ما يجري ، وأظنه لم يفهم أيضًا ما حدث بعدها عندما أخرجت

مسدسي وأطلقت عليه ثلاث رصاصات تردد صداهن في الجو ، رجعت إلى السيارة بعد أن اطمأننت أنه غادر الحياة ، وكان عليّ الآن أن أهتم بمشكلة بسيطة بعدها ستعود الحياة كما هي، وسأعود كما كنت وأفضل ...

-نرمين ...

كنت أدخل القاهرة وعلى وجهي ملامح الارتياح وكلما تذكرت نظرة عصام وهو يتلقى الطلقات كلما شعرت أنه من العدل أن يموت..

الآن تحولت لقاتل محترف، اللعنة! ...

ركنت السيارة أسفل عمارة نرمين...صعدت السلالم بسرعة المسدس في جيبي ولكنني هذه المرة قررت أن أرميها من فوق... فتاة وانتحرت عندما عرفت أنها حامل دون زواج...

رننت الجرس عدة مرات، قبل أن أسمع صوت أقدام تتجه لتفتح الباب، فُتح الباب، فرجعت للوراء خطوة عندما رأيته أمامي، شاب في منتصف الثلاثينات بلباس البيت يقف مرحبا بي ، فلا أجد الردّ المناسب إلا بهز رأسي ... كانت نرمين تقف خلفه في ملابس البيت أيضًا رحبتْ بي بشدة، فكتمت كلَّ ذهولي داخلي وقررت أن أعرف ما يحدث أمامي وآثرت الصمت وسط حفاوتهما البالغة بي، فهمت بعدها أنه زوجها وأنّه يعرفني جيدًا وقد جاء أول جلسة علاج لهند فقد كانت تعاني

من مشاكل نفسية خاصة بسبب تأخر الحمل، ما فهمته أنهما تزوجا منذ فترة طويلة وأنّه عاد من سفرية قصيرة منذ أيام ، وأنّي بالفعل طبيبها النفسي الذي كان يباشر حالتها وجاء ليطمئن عليها الآن. أخبرتها وسط ذهولي أنني سأفتح العيادة من غد لو أحبت بأن تأتي مرة أخرى، قالت: إنها ليست في حالة للعلاج، فما كانت تحتاجه قد حصلت عليه ...وأشارت إلى تكور بطنها ...

غادرتُ المكان والأفكار المجنونة تلعب برأسي، هل كان زوجها هذا والد الجنين الذي تحمله في أحشائها أم كنت أنا ؟ لا يهم! .. لقد كتبت لها النجاة.

كان عليّ الآن أن أتخلص من كل شيء يخص عصام في شقتي القديمة ، هند بالتأكيد ستجن لتأخيري ، ولكنني أنظم الحياة ... فعليها الانتظار ...

قطعت الشوارع بسرعة متوسطة لا أريد المجازفة بحادثة أخرى يكفي ما مررت به... بدت لي العمارة ساكنة في هذا الوقت من الليل ....

صعدت للشقة، كان مفتاحها ما يزال معي، رحت أنظف الشقة بمنتهى السرعة، جمعت ملابس عصام في شنطة كبيرة انتهيت تقريبا سأغلق الحقيبة وأغادر ... بغتة رن جرس الباب، من يأتي الآن؟ ... النور مضاء بالتأكيد من يرن يعرف أن شخصا بالداخل؟... ارتفع الرنين مرة أخرى فلم أجد أمامي

سوى أن افتح الباب، وجدتها تقف في وجهي تلك المرأة الأربعينية جارتي التي لا أتذكرها تقريبًا، قالت: إنها رأت النور مضاءً، وأنّي غائب من فترة فأحبت أن تطمئن ... شكرتها وحاولت أن أطردها بنعومة نحو باب الشقة، ولكنها وقفت وهي تعلق: انت مسافر يا دكتور؟... أجبتها، بدون سبب. فأشارت للشنطة أخبرتها أنها لصديقي الذي كان يعيش معي هنا، نظرت لي بدهشة وقالت: أيُّ صديق ؟ لا أحد غيرك يدخل الشقة ... حمدت الله ربما لم تنتبه يومًا لدخول أو خروج عصام، ولكن برغم استحالة هذا ولكنه أراحني، وفجأةً وأنا أحاول أن أجعلها تنصرف، قالت : دكتور عصام ...

إذاً فهي تعرفه لماذا تنكر ؟ ولكنها استطردت:

-دكتور عصام انا عايزة حضرتك تكتب لي أي مهدئ .. بيجيلي كوابيس كتير.. دكتور عصام انت سرحت رحت فين؟ ...

جحظت عيناي بشدة ورأسي يدور وعقلي يلف بسرعة مليون لفة في الدقيقة فخلفها وعلى باب الشقة كانت لافتة مثبتة ... دكتور عصام فاروق ...

دفعتها برفق وأنا أغلق الباب خلفها بعنف...راحت الأفكار المجنونة تضرب عقلي...:ما الذي يحدث؟ وهم جديد أم حقيقة؟!

خرجت تطلعت للافتة المعلقة وأنا أضرب جبهتي بيدي....

لا أعرف كيف ركبتُ سيارتي وكيف وجدت نفسي في نفس المنطقة التي تركت فيها عصام غارقًا في دمائه، لا أثر لأي شيء، ولا أثر لأيّ جثة...

كان نور الفجر قد بدأ يداعب الحياة، وكنت في طريقي إلى هند ... وكانت صورة حمدي السيوطي تعود لتضرب مخيلتي ... رنّ تليفوني المحمول كانت هند ضغطت على زر استقبال المكالمة جاء صوتها زاعقًا :

-فيه ايه يا عصام ... انت فين حرام عليك ... انت مصر تجنني ؟؟!!..

أجبتها: أنني في الطريق، وأغلقت الخط ... لا أرى تقريبًا الصور تترى بعنف، بدأت أشك أنها لعنة جديدة على جرائمي، لعنة ألصقها بي حمدي السيوطي وعصام ... عصام الذي لم يعد له وجود أو لم يكن له وجود.. لأنه أنا.. بكل أسف ..

أخيرا ظهرت العمارة أمامي، كنت مجهدًا للغاية، وأحتاج للنوم بشدة، فتحت الباب وجدت هند واقفة تقطع الصالة ذهابًا وإيابًا، وعندما رأتني راحت تعنفني على ما أفعله، أخذتُ طريقي لغرفة النوم وهي تتبعني، وكلامها الجارح يضرب عقلي ، إنها أحيانًا تأسف على زواجها بي وليتها لم توافق كما فعل أبوها، وليتها سمعت كلامه ... وجدت نفسي أهتف فيها: لأن أبوها كان مجنونًا ومات مجنونًا في مستشفى المجاذيب ...

نظرت لي بغرابة عجيبة وهي تقول: أي كلام مجانين ما أقول؟ ؟ فأبوها مات في سريره أثر أزمة قلبية ...

وجدت نفسي أسقط على السرير وهي تواصل تعنيفها وهي تجهز شنطتها للرحيل، قالت: أنها ستذهب لأمها في الإسكندرية عدة أيام لتستريح مني، ومن جنوني الذي جاء لي من كثرة مصاحبة المجانين ...

لا أعرف لماذا لم أتحرك وهند تغادر الشقة ....

ظللت لساعات أنظر في المرآة التي تعكس صورتي الآن ... كنت عصام في كل تفاصيله ... كما تخيلته...

وجدت نفسي أتصل بألفت، وجاءني صوتها دافئًا ، أخبرتها أننّي سأكون في العيادة اليوم، فقالت: إنها ذهبت للمستشفى الجديد في الأيام الماضية وأنها تشاجرت مع المقاول لأن اليافطة التي تحمل اسم مركز الدكتور _عصام فاروق_ صغيرة بعض الشيء وأمرته بتغييرها ... لم أكن أحتاج مؤكدًا آخر ...

أغلقت الخط، وتطلعت للمرآة كان وجهي، وجه عصام ولكن ما أثار حيرتي هو انعكاس صورة حمدي السيوطي في المرآة وهو يشير بيده لي محييًا وينصرف ..

ارتميت على السرير والنوم يسلبني إرادتي .... وصورة المستشفى تلمع في رأسي وقسم الحالات السرية للمشاهير تجلس فيه أنجلينا جولي ....فاتسعت ابتسامتي وذهبت ....

خاتمة 3

كنت أشعر بالارتياح أخيرًا خرجت من المستشفى، سأعدّ لهند مفاجأةً لم أخبرها بميعاد خروجي؟، استقليت تاكسي إلى البيت، العمارة تظهر أمامي واضحة، أجد نفسي مشتاقًا لعدّ درجات السلالم وأنا أصعد، لا أعرف لماذا لدي خوف من المصاعد؟، أقترب من الباب، ألج المفتاح وأدخل متسللاً، أريد أن أرى نظرة المفاجأة في عين هند ، هناك شيء غريب في الشقة شيء أحسه، أقترب من غرفة النوم أدفع بابها برفق، تجحظ عيناي بشدة، فهناك وعلى سريري، كانت هند عارية وعصام يضاجعها، لم ينتبها لي، ارتجف بدني بصورة مرعبة، وجدت نفسي أتسلل إلى المكتب، أخرج مسدسي، أعود للغرفة، أدفع بابها بعنف، أرى نظرة الذهول في عينيهما، أطلق طلقات مسدسي لتستقر في جسديهما، أرى الدماء في كل مكان ، أصرخ صرخة رهيبة ...

ثم أفيق، أجد نفسي ما زلت في المستشفى، وأنّني مررت بكابوس رهيب ...

لا أعرف كم يوم بعدها راح يتكرر الحلم ويكتمل بصور مختلفة، رأيت نفسي في المحكمة، وحمدي السيوطي يمثل النيابة ويطلب بإعدامي، شاهدت نفسي ببذلة الإعدام، ورأيتهم يأخذوني إلى المشنقة، الكوابيس تزداد ضراوة وعنف ...

أخيرًا زارتني نرمين في المستشفى، قالت: أن ما منعها أنها تعبت جدا بسبب الحمل وظلت طريحة الفراش لأيام وأنها ما زالت تعاني وأنها جاءت لتخبرني بشيء هام ولكنها لا تستطيع الآن ...

سألتني متى سأخرج ، قلت : أنها أيام ..

انصرفت نرمين وقد تركت بداخلي شعورًا بالاغتراب والغربة، لا أعرف هل شعرت بالحب لنرمين أم لا؟ رؤيتها جددت بداخلي أشياء كثيرة، ذكرتني بآخر لقاء بيننا، طلبت منها عدم الحضور للمستشفى مرة أخرى، فلا أريد أن تراها هند، وسوف أحل كل مشاكلي قريبًا، وسنكون مع بعض .

أشك أن الممرضة تقرأ يومياتي عندما أنام ، ولكنني للآن لم أضبطها متلبسة ... لا يهم !

القمر يتوسط السماء، وأنا أقف الآن خارج المستشفى، لا أعرف لماذا ؟ لم أخبر هند بخروجي اليوم ولكنني صممت أن يكون كل شيء كالكابوس الذي يطاردني، سأتسلل وأدخل البيت سأجدهما عاريين، سأضربهما بالنار، وأطلب البوليس ..

السيناريو أصبح كاملاً وعليّ التنفيذ ...سأضيّع عدة ساعات في التجول ...لا أعرف كم من الوقت مرّ وأنا أسير على غير هدى ... ولكنه كان يكفي لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير.

بالفعل وقف التاكسي أمام العمارة ، هذه المرة استعملت المصعد وقفت أمام باب الشقة، دفعت المفتاح في الباب وأدرته ببطء ودخلت، متسحبًا إلى غرفة النوم، فتحتها بهدوء، ما وجدته أمامي جعلني أشد ذهولاً، فلقد كانت هند تغط في النوم وهي تحتضن صورتي ، اللعنة !

خرجت للصالة ، مشاعر متضاربة إلى ما لا نهاية .. ارتميت على الكنبة غارقًا في خيالاتي ... لم أشعر بنفسي إلاّ عندما وجدت شفتيّ هند تلتهمان وجهي وهي تهنئني على الخروج وتعنفني أنّي لم أخبرها. أخبرتها أنّي لم أرد أن أزعجها ويكفي ما أزعجتها به في السابق ، ترددت كثيرًا أن أسألها عن المرأة وابنتها في الحادثة، ولكنني في النهاية سألت، أجابتني ضاحكة إنهما بخير وأفضل حالاً مني بمراحل، وأنها توصلت لحل مع المرأة وانتهى الموضوع منذ زمن ...أخذتني هند من يدي إلى غرفة النوم، وضعتني في السرير كطفل، وذهبت للمطبخ، عاملتني بطريقة جعلتني أكره نفسي أكثر، كيف تصورها خيالي في تلك الصور المجنونة... سأحاول أن أنهي كل شيء من أجل هند ...

مرت عدة ليال لم أخرج من البيت، أغلقت المحمول فلا أريد لأحد أن يعكر صفو تلك الأيام، كانت هند في قمة أنوثتها، ذهبنا معًا لعوالم من الحب لم أكن أظن أنني سأصل إليها في يوم ما ، راحت كل الذكريات السيئة تختفي تباعًا، حتى حمدي السيوطي أصبح قليل الظهور في أحلامي، تركتني هند اليوم منذ ساعات قليلة قالت: أنها ستذهب لإحضار شيء للغداء. حاولت أن أقنعها بالذهاب معها ولكنها رفضت وقالت: أنني ملكها هذه الأيام وعليّ أن أطيع أوامرها ...

كانت المفاجأة من نصيبي هذه المرة عندما قالت لي هند بعد عودتها: أنها تأكدت اليوم أنها حامل، فقد أكدّ الطبيب كل شكوكها ، لم ترد أن تخبرني قبل أن تتأكد ...

لم أدرك حينها ما الشعور الذي يحتل كياني؟، وما الذي يعتمل في صدري تحديدًا؟ ... كنت فرحا بالتأكيد ... الآن لي جنينان سيأتيان إلى الدنيا .. نرمين كيف نسيتها ؟..

اعتذرت لهند مساء أنني يجب أن أخرج لأنهي بعض الأشياء الهامة ، فتحت لي نرمين الباب كانت تبدو شاحبة لأقصى درجة وكأنها تموت، كان الحمل ينهكها تمامًا، أصررت أن أذهب بها للدكتور ، كانت ترفض وتعلل بأنها ستكون بخير...

وضعتها في السرير ، واتصلت بالدكتور ليأتي ...

بعد الكشف قال الدكتور: أن الجنين وضعه سيء ومن الواجب نقلها المستشفى حالاً .

كانت نرمين الآن في حجرة العمليات، لا أعرف هل هو عقاب لي على ما حدث ؟، بالطبع أنا أستحق العقاب ، أستحقه.

مرت ساعات قبل خروج الدكتور طمأنني أن كل شيء بخير ولكننا فقدنا الجنين، هناك أشياء تحدث حولي تصيبني بالجنون، فقدت ابنًا في لحظات وجاء ابن في لحظات ...

الأمر أصبح أشبه بجو المسلسلات ، ولكن المسلسل الحقيقي هو ما أخبرتني به نرمين بعدها عندما أفاقت، كان مذهلاً لدرجة أرعبتني ...

إن الجنين لم يكن لي، أنّي لم أكن زوجها في يوم ما، الجنين لعصام، ودون زواج، وربما كان ضمن خطة عصام لتطويقي هو وألفت، لم تعرف نرمين كيف تعرفت بعصام وكيف غطست في بحره ولكن من مهد للموضوع وقربهما من بعض هي ألفت ممرضتي، ألفت، ألفت هي وباتفاق مع عصام من كان يضع لي حبوب الهلوسة في شرابي، العصير الذي دومًا كانت تقدمه لي كانت تضع به قدرًا من حبوب الهلوسة، وهي أيضًا من جعلتني أمضي على عقد الزواج العرفي وتمريره ضمن أوراق لي، ألفت ... الشيء الوحيد الذي لم أتصوره يحدث ... لم تمت نرمين ... وإن كنت وقتها تمنيت موتها وموت عصام

وألفت ... ولكنني قررت أن أنهي المسألة بطريقة أخرى هذه المرة ...

أظن قد تصيبك المفاجأة وأنت تراني الآن أفتتح المركز الجديد لي، هند على يميني ، بينما يقف عصام على يساري ، وبجواره ألفت ونرمين، عقابي هذه المرة جاء مختلفًا لقد أعطيت لعصام العيادة بشرط زواجه من نرمين، وأيضًا زواجه من ألفت، يجب أن يذوق التمزق بينهما، مضى لي عصام على وصل أمانة بمبلغ ضخم، أودعته في حسابه بالإضافة إلى وصل آخر قيمته أكبر لو فكر في يوم من الأيام بتهديدي ...

المحافظ يقص شريط المركز الجديد وسط تصفيق الجميع .... وأمامي أعلى سلم المركز كان يقف شبح اختفى من مدة من أحلامي ... شبح حمدي السيوطي وهو يبكي والدموع تغرق وجنتيه ... ولكنني للأسف لم أكن أراه ... وأسمع التهاني حولي من الجميع، لكنني فوجئت بنفسي ما زلت أعدّ درجات سلالم الصعود للباب ....